عبد الكريم قاسم ونجيب
الربيعي و مهدي كبة في
احتفال عيد الجيش 1959

قصة تنظيم الضباط الأحرار في العراق

من هي عادلة خاتون؟

الموصل في ظل الحروب العثمانية

وثائق عراقية

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

العدد (1815) السنة السابعة
الاثنين (7) حزيران 2010

2

كيف تأسست جمعية
البقالين في بغداد
عام 1930؟

كيف تأسست جمعية البقالين في بغداد عام 1930؟

سالم الالوسي

صور تجمع اعضاء جمعية البقالين في العراق

الحاج محمود (على جواز سفره) عند انتخابه معتمداً لجمعية البقالين ب

في اواخر العشرينيات واوائل الثلاثينيات الماضية عصفت باقطار العالم- ومنها العراق – الأزمة الاقتصادية الكبرى، فتعرضت الاسواق المالية والتجارية الى اضرار بالغة وخسائر جسيمة وإنتقلت العدوى الى الاسواق العراقية، وقد ظهر ذلك جلياً في اضطراب الاحوال الاقتصادية وركود الحركة التجارية في الاسواق وغيرها، فكثرت الاضطرابات والاحتجاجات والمطالبة بإلغاء الضرائب او تخفيضها، منها اضراب اصحاب المهن الحرف الذين رفعوا اصواتهم وأعلنوا الاضراب واغلقوا دكاكينهم وحوانيتهم ومخازنهم مدة اسبوعين ما حدا بالحكومة تدارك الامر، حيث وجدت ان البيئة والاوضاع المعيشية في حينه لاتحتمل هذا الارهاق، فالتجأت الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالتخفيف عن هذه الضائقة بإعادة النظر في الضرائب الباهظة التي كانت حكومة الاحتلال البريطاني في زمن الحاكم العسكري (بلفور) قد فرضتها على اصحاب المهن والحرف.

وقد خلقت هذه الاحوال وتلك الازمة الاقتصادية حالة من الشعور بضرورة الاحتياط والتهيوء لأمثال هذه الامور واتخاذ التدابير لمعالجتها، فتكونت في بغداد جمعيات مهنية وحرفية كانت باكورة الحركة النقابية في العراق، ومن بين تلك الجمعيات (جمعية البقالين) ببغداد.

ففي ١٩٣٠/١/١٨ قررت الهيئة المؤسسة لجمعية البقالين اصدار بيان الى اعضائها كافة نشرته في الجرائد المحلية ومنها جريدة البلاد، ما يأتي:

١-ستجري انتخابات الهيئتين المالية والادارية ليلة ٣-٤ شباط عام ١٩٣٠ (الموافق ٤-٥ رمضان ١٣٤٨ هـ) الساعة الثالثة عربي في المحل المسمى بـ (الوطني).

٢-يعتبر هذا الاعلان دعوة عامة لجميع الاعضاء المنتسبين والمسجلة اسماؤهم في الجمعية، ولذا نرجو من جميع صنف البقالين الذين لم يسجلوا اسماءهم كأعضاء في الجمعية، ان يراجعوا الهيئة المؤسسة لتسجيل اسمائهم خلال المدة المذكورة وفق المادة (١٠) من النظام الاساسي لجمعية البقالين. حيث لايحق لغير المسجلين في الحضور للانتخابات والقرارات والاعتراضات.

(الهيئة المؤسسة)

وفيما يلي ندرج الخبر، بانتخابات جمعية البقالين، التي حاز فيها الحاج محمود البنية الاكثرية الساحقة واصبح معتمدا لها. ومن هذا الخبر وغيره نستنتج الحقيقة الصادقة المعبرة عن السمعة الحسنة والمنزلة الاجتماعية المرموقة التي كان يتمتع بها المرحوم الحاج محمود في الاوساط العامة والخاصة.

انتخابات جمعية البقالين

قد اجتمع المؤسسون لجمعية البقالين مع جميع الاعضاء المنتسبين الى الجمعية في رويال سينما يوم الثلاثاء ليلة الاربعاء المصادف ١٩٣٠/٢/٤ ، الساعة الواحدة عربية. وبوشر بالانتخاب الساعة الثانية والنصف بحضور عضو مجلس الادارة السيد هاشم افندي النقيب (الكيلاني) وبعد الكشف عن الصندوق تبين ان الصندوق فارغ ونقل الصندوق، ووضع مفتاحان الاول عند السيد هاشم افندي الكيلاني، والثاني عند الحاج محمود (البنية) وبوشر بتوزيع الاوراق بانتخاب لجنتي المالية والادارية، ولما كمل الانتخاب الساعة الرابعة، اجتمعت الهيئة المؤسسة مع عضو مجلس الادارة واخذوا بتصنيف الاراء، وبالنتيجة حاز الذوات التالية اسماؤهم وهم:

ابراهيم الحاج مبارك ٣٥٦ صوتاً/ وعبد الهادي الحاج فرج حمره ٣٥٦ صوتاً/ ورشيد سلمان بقال باشي ٢٥٥ صوتاً/ ومهدي الصالح العزاوي ٣٥٥ صوتاً/ والحاج احمد سليم ٣٤٦ صوتاً/ والحاج رشيد رستم عمري ٣٥٦ صوتاً/ والحاج عبود السعيدي ٣٣٩ صوتاً/ وسيد رحيم السيد علي قدري ٣٥٣ صوتاً/ والحاج احمد بن حسن ٣٤٠ صوتاً/ وتوفيق العاني ٣٤٤ صوتاً/ والحاج ابراهيم شواكة ٣٥٢ صوتاً/ وسيد خليل سيد محمد ٢٧٣ صوتاً/ ورشيد حنش ٣٤٧ صوتاً / وحميد عبد علي حله ٣٥٠ صوتاً.

واصبحوا اعضاء لهيئتي المالية والادارة.

ولقد آثر الحاج محمود البنية عدم ترشيح نفسه وترك المنافسة لزملائه الذين أصروا على انتخابه معتمداً لمنزلته واحترامهم له.

وبعد ذلك اجتمعت لجنتا المؤسسة والاداررية وباشروا انتخاب المعتمد العام حسب نص القانون ، وحاز الاكثرية الساحقة الحاج محمود (البنية) وأصبح معتمداً عاماً لجمعية البقالين.

ثم بوشر بانتخاب نائب المعتمد وسكرتير الجمعية وأمين للصندوق، وقد أصبح السيد عبد الله السيد محمد نائبا، ونصيف الحاج سكرتيراً ورشيد السلمان أمين الصندوق، وقدمت من هذه النتيجة نسخة الى وزارة الداخلية للتصديق عليها.

ونظراً لسمعته ونزاهته ومنزلته الاجتماعية، اختاره البقالون في بغداد معتمداً ورئيساً مدة من الزمن وكانت التقاليد والعادات الجارية بين ارباب المهن واصحاب الحرف، ان تختار كل مهنة او حرفة رئيساً لهم اشبه ما يكون بالنقيب في هذه الايام، فكان للبقالين رئيس والحدادين والخياطين والبنائين والنجارين والحلاقين والقصابين ولكل مهنة وحرفة رئيس يتولى امور اهلها ومساعدتهم في جميع المسائل التي تتصل بعملهم (انظر هوية جمعية البقالين).

من الظواهر التي عرفتها بغداد - في خمسينيات القرن الماضي - ظاهرة حسون الأمريكي كما لقبه البغداديون في ذلك الزمن .. وكان يشاهد عصراً في شارع السعدون حيث كان يمتطي دراجة سباق ويرتدي بنطلونا قصيرا مزركشا وخوذة واقية وجوارب مقلمة أشبه بجوارب لاعبي كرة القدم ايام زمان !
أحيانا كان حسون يتمشى عصرا مع كلبه مرتديا بنطلون جينز وقبعة كاوبوي وحذاءه المشهور المعقوف من الامام والذي كان يسمى (چم چم).. وأحيانا يظهر في الشارع مرتديا بنطلونا فاتحا اللون وسترة غامقة وحذاء قبغلي مع جوارب صفر اللون !

حسون الأمريكي ثانية

مصطفى الفضلي

في أوائل الستينيات ضيّفه التلفزيون بصحبة دراجته وبزيه المعتاد ، وأجاب على اسئلة مقدم البرنامج شارحاً وجهة نظره في زيّه ، واعتبره الزي العصري المتمدن ، ثم شارك في تمثيلية عرضت في التلفزيون ، ألفت خصيصا له حيث جرى الحوار بينه وبين أبيه في التمثيلية وطرح فكرته عن تصرفه وملبسه ... ودعا الشباب الى ان يتمتعوا بحريتهم العصرية ، من دون الاعتداء على حرية الآخرين .. وانتقد تصرفات المراهقين في السينما والشارع وتحرشهم بالفتيات .

ان تصرفات حسون الأمريكي كانت تعد تحدياً لذلك العصر وتظاهرة سلمية ، وبعد فترة سنوات اعتزل الناس هروباً من تعليقاتهم الساخرة والمؤلمة أحياناً ، ولكنه أصر على تحديهم لاعتقاده انه يتمتع بحريته الشخصية التي تساير العصر المتمدن .. وصار حسون الأمريكي من ظرفاء بغداد المشهورين وتناولت الصحف أخباره .

وحسون الاميركي هذا الرجل الوديع والمسالم الذي فرض حضوره على الجميع وجعل من شكل ملابسه محط انظار كل من يراه من الناس في الشوارع سبق عصرنا الحالي بعقود طويلة حيث كان يرتدي ما يحلو له من القمصان ذات المناشئ المعروفة بجودتها وجودة صناعتها من الاقمشة ومن بينها قمصان تحمل علامة "أرو " وهي العلامة التجارية والممتازة آنذاك .

الكلام عن حسون الامريكي يطول بامتداد الشوارع التي كان يقطعها ويخرج على الناس كل يوم بشكل وزي جديد ، فقد ارتدى القمصان التي تحوي غابات افريقيا وقمصان ذات الوان صارخة لم يستطع غيره ارتداءها والمغامرة بالخروج بها وسط الشارع ،، وتنتصب على صدره قلادة والاكثر من هذا ان حسون الامريكي كان يسحب وراءه كلبه المدلل اينما حل .

لقد ساعد حسون في حصوله على هذه الملابس الغريبة من عمله في المستشفى مع الاطباء الذين احبوا بدورهم زيه ،وخطه في الحياة ،وكان حبهم له ممزوجاً بالسخرية التي كان يتقبلها حفاظاً على الهدايا التي كانوا يغدقونها عليه ،عند رجوعهم من الاسفار حتى ان بعضهم كان عندما يروم السفر الى خارج البلاد يرسل بطلب حسون ليسأله عن حاجته لكي يجلبها له من الخارج

ولم يكتف حسون هذا بارتداء الازياء الغريبة فقط بل انه تعداها الى التصرف الغريب فكثيراً ما كان يسير في شوارع بغداد مستصحباً معه كلباً كان يستعيره من احد معارفه من الاطباء ممن كان يسكن في منطقته وكثيراً ما كان ايضاً يصعد الى الباص مستصحباً معه الكلب (ولف ...دوك) ويقطع له بطاقة دفعاً لاستهجان الركاب فلما احس (الجابي) نفور الركاب واستهجانهم وتخوفهم من الكلب وراحوا يسمعونه الكلمات النابية لم يكترث حسون لكل ذلك وانما التفت الى الجابي قائلاً :انه خير منهم جميعاً . هي نزعة من التمرد في ذلك الوقت على التقاليد السائدة انذاك ولكن نزعة التمرد التي كانت عليها شخصية حسون الامريكي لم تطو تحتها نزعة شريرة او ما شابه ، فقد كان حسون الامريكي محبوبا من الجميع بشهادة اكثر من شخص عايش فترته ، كما لم يكن عاطلا يأخذ مصروفه من اهله ، او يعتاش على ما تجود به ايدي الخيرين فقد كان يعمل ممرضا في مدينة الطب (مصرف الدم) او كما كانت تسمى سابقا بالمجيدية او المستشفى الجمهوري فيما بعدً .

ومن الاعظمية حيث مسكنه ينطلق ماشيا قاطعا شوارع العاصمة وكان يتحدث الانجليزية نوعا ما ويرطن بها حسب قدرته . يقال ان حسون الامريكي وبحكم وظيفته ممرضاا كان يبدو نظيفا وانيقا ، وكان شغوفا بالاطلاع على احدث مجلات الازياء التي تصدر من دور الازياء العالمية التي كانت ترد الى العراق مع بقية المطبوعات الاخرى التي تعنى بالزراعة والطبخ وفنون الاتكيت.

وكان حريصا على متابعة الافلام الغربية التي كانت تعج بها دور العرض السينمائي ويؤكد البعض أن حسون الامريكي وبعد ان يخرج من الفيلم ومشاهدة احداثه يقوم بتقمص شخصيات ابطاله .

اما اختياراته لثيابه من حيث البنطلون والقميص فقد كان يختارها من افخم المخازن واكثرها شهرة وعراقة امثال "اورزدي باك " و"حسو اخوان " ومثيلاتها من معارض الالبسة آنذاك ... وينقل عنه انه كان رجلا لا يحب العنف بل على العكس فقد كان موضع احترام الناس وبشاشتهم له حينما يلتقون به او يجمعهم مجلس معه، ويتمتع بروح النكتة البريئة بعبارة ادق كان رجلا خفيف الظل ، ويملأ جو الجلسات بقفشاته الجميلة وان الذي جعله على شكله وحاله هوم انه رجل اجتماعي وليس انعزاليا كما يقول ناس ذلك الزمن، وحينما يبادره احدهم بـ "صباح الخير" كان حسون يرد بـ" كود مورنينك " باللغة الانكليزية !

وفي الفترة الثانية من حياته أي عندما تحسنت حالته المادية سافر الى العديد من البلدان الاجنبية وقد استغرب منه حتى اولئك الاجانب من زيه لانهم لم يتوقعوا رؤية عربي يقلدهم تقليداً كاملاً في لباسه .

ومن مواقفه الطريفة والغريبة ايضاً نذكر انه كان في زيارة احد اصدقائه من طلاب (دار المعلمين العالية) كلية التربية حالياً وعند جلوسهما في نادي الدار المذكورة طلب ان ياتي له عامل النادي (بالشاي والحليب) وما ان قدم له ما اراد طلب منه ايضاً ان ياتي له بقصبة كتلك التي يشرب بها الكثيرون الببسي كولا، واخذ يمتص عن طريقها الشاي والحليب ولم تمض لحظات حتى ذابت تلك القصبة لحرارة المشروب بين ضحكات الطلاب الذين كانوا قد التفوا حوله حال دخوه النادي واستغرابهم لعمله هذا .

شيخ شارف على عتبة الثمانين، ومع ذلك فأنه عندما يتحدث اليك، مستذكراً ماضيه وبطولاته، يحرك يديه بنشاط جم، ليصف لك المسكات الفنية التي كان يمارسها ضد خصومه ويلحق بهم الهزيمة، محققا بذلك الفوز ومنتزعاً التصفيق والاعجاب من الحضور.. مهدي الزنو، المصارع الذي لم يعرف الهزيمة طوال خمسين عاما، التقيناه به ليحدثنا عن بعض ذكرياته ونجاحاته.

المصارع مهدي زنو

لم اكن اتصور قبل السنوات التي صارت ذكرى، انني سأقطع هذه المرحلة الطويلة، لأنعم النظر بما آل اليه العراق، في ظل هذه السنوات المتبقية من عمري، ولم اكن اتصور ان بغداد ستكون على ما هي عليه الان من العمران في ابنيتها وأروقتها ومن الوعي والثقافة.. ان لبغداد اليوم نكهة تختلف عما كانت عليه.. وانني احمد الباري تعالى الذي منحني العمر، لأشارك اولادي واحفادي في هذه المرحلة من حياة شعبنا الوفي العريق.

قلت للحاج مهدي، متى بدأت المصارعة، وكيف اخترتها؟! قال: لقد كان والدي مصارعا، وكانت حلبته في صحن دارنا، وكنت اجد صحبه يتجمعون عنده كل يوم، يتمرنون وينازلون ومن يومها، وقعت المصارعة في نفسي وعلقت بها، فأخذت تقليد الكبار في حركاتهم بيد انني وجدت الادوات ثقيلة على بدني الصغير فاضطر والدي وقتها ان "يوصي" على ادوات تمرين تتناسب وقدرتي، ولما بلغت مبلغ الفتوة، قررت الانتساب الى مجموعة من المصارعين وكان يشرف على تدريبهم في حينها رجل مشهور وقتئذ هو الحاج محمد البريسم ، ولم يكن الانتماء الى مجموعة المصارعين سهلا، فأنه كان يتوجب على المنتمي ان يكون هادئا رزناً صابراً مسامحاً قوياً. وقد بقي طلبي معلقاً قرابة اشهر اربعة حتى تمت الموافقة بعد ان تأكدوا بأنني اتمتع بالصفات المطلوبة.

ويسترسل مهدي الزنو في حديثه بعد ان يشير بسبباته باتجاه الصالحية. ايام الاحتلال بدأت اول مباراتي، حيث لم تكن الصالحية كما هي الان، فقد كانت عبارة عن بستان للاشجار، حضر المباراة "كوكز" وجنود من الانكليز والهنود، وابناء قواتنا المسلحة إضافة الى المئات من المتفرجين وكان "كوكز" وجنده يشجعون خصمي الهندي الذي يمثلهم.

لم تكن الارض مفروشة، ولم تكن المباراة بجولات بل كان الاتفاق ان تكون جولة واحدة. قد تستمر لعدة ساعات وما ان بدأ النزال، حتى وجدتني افقد السيطرة على خصمي (محمد غلام) وبقيت كذلك قرابة عشر دقائق لقد كان من الوزن الثقيل ويكبرني سنا وخبرة، ولكن الذي جعلني استعيد قوتي، الاصوات المرتفعة المشجعة المنبعثة من صوب ابناء بلدي فتخلصت من "مسكته" وانقضضت عليه كالنسر وصرعته، وعندها لم يتمالك واحد من الحضور

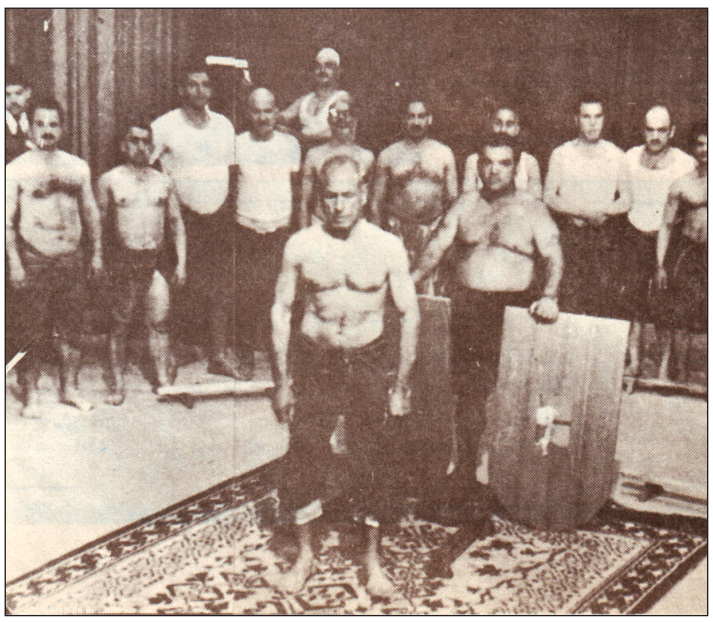

نفسه لهذا النصر الذي حققناه، حتى ان البعض منهم اخذ يرمي كل ما جيبه من "روبيات" على رأسي..
ويسكت المصارع "زنو" برهة ثم يضيف، في عام ١٩٢٧ "توجهت الى البصرة وقد استقبلت من قبل المهتمين بالعبة، وطلبوا الي مهمة الاشراف على تدريبهم ونفذت ما طلبوا وتبارينا كثيراً، غير ان حبي للتنقل جعلني اترك البصرة، فتوجهت الى العمارة، وهناك استقبلني سعيد الصفار حيث كانت لديهم حلبة في سوق "ناظم آغا" فتباريت مع كل من تحداني وصرعته، وبعدها نزعت الى محافظة كربلاء والتقيت بالمصارع المعروف، حسن كبابي، وكان هذا مصارعا قويا وشرسا، واذكر انه لما بدا النزال غرس قدمه في الارض بحيث لم اتمكن من من زعزعتها" فكأنها ثبتت "بالمسامير".
ولما بقي على تلك الحال فترة، نشر الحكام قطعة القماش في الهواء معلنا انتهاء الجولة، حيث لم تكن هناك "الصفارة" التي تستعمل اليوم من قبل المحكمين، وقد ارجئت بعد ذلك المباراة بيني وبينه ولم نلتق.
وفي عام ١٩٣٦، وصل الى العراق المصارع الالماني المشهور "هركرير" وعندما التقينا وصافحته، صرخ مستغيثاً من الالم الذي الحقته بأنامله.
لقد اردت ان اختبر قوته فأذا به يصرخ ثم يرفض منازلتي مدعيا بأنني وحش!
×وسألت الحاج مهدي: ألم تخض نزالات مع مصارعين عرب؟
– قال: نعم..ففي عام ١٩٣٨، حل علينا مصارعان من مدينة حلب، الاول يدعى يوسف برز والثاني عبدو صعب، وكان الاول يتقن اسلوبا في المباغتة، كما قال قيل عنه، ومع ذلك قررت ان انازله، حفاظا على اسمي وجرى النزال، وقد وجه لي ضربة بادئ الامر، لم اكن منتبها لها. ومع ذلك فقد استعدت وضعي وصرعته بعد جهد، وقد حملتني الجماهير على الاكتاف وسارت بي في شارع الرشيد ذلك لان المباراة كانت قد جرت في "سينما غازي" في الباب الشرقي.
×وعن علاقته بالمصارع عباس الديك يحدثنا: "زنو" فيقول: لقد كان الديك مصارعا وبطلا، وقد حاول البعض ان يحفزنا للصراع، وقد بلغ بي الامر ذات يوم بأن اذهب الى "الديك" وطلبت اليه المبارزة، غير انه هدأني، وأقر إمام بعض الصحب انه يعترف بي بطلاً، من دون اللجوء الى المبارزة..
×وسألت الحاج، "زنو" عن موقف حرج او طريف صادفه في حياته المديدة فقال: كنت اتهيأ ذات مرة لمصارعة خمسة اشخاص كل على حدة، وخلال التمرين انزلقت قدمي فاصبت برضوض وتمزق..
ولما أشرت في بادئ كلامي انه يتوجب على المصارع ان يكون صبورا فقد، "صبرت" ونازلت المصارعين الخمسة حيث تغلبت عليهم ثم ذهبت للعلاج، وكانت اللحظات التي انازل بها الخصوم حرجه جدا لاسيما ان الالام كانت شديدة.
×اما بالنسبة للموقف الطريف فاذكر انني كنت جالسا في المقهى عندما تقدم مني صديق وطلب الى فحص مسدس اشتراه حديثا، ولم يعلمني بأنه محشو بالرصاص فعندما ضغطت على الزناد، انطلقت الرصاصات فدهشت كثيرا، ولما تلفت يمينا وشمالا، لم اجد احدا في المقهى حيث هرع الجميع خارجه حتى ان بعضهم ترك حذاءه وهرب!
هذا هو الحاج مهدي زنو، المصارع الذي اقعده "الربو" عن ممارسة رياضته التي احبها قرابة "٦" عقود من حياته.

مجلة الاذاعة والتلفزيون اذار 1973

حكاية مقهى الخفافين في بغداد

يعد مقهى الخفافين واحدا من اقدم مقاهي بغداد، او العراق، على الاطلاق، وحسب الشيخ جلال الحنفي فان مقهى الخفافين بني مع بناء المدرسة المستنصرية في عهد الخليفة العباسي المستنصر بالله عام 1233.
ونسب اسمه، الخفافين، الى صناع الجلود من الحرفيين الذين كانوا يصنعون (الخف) او الاحذية، اضافة الى صناعة سروج الخيل وبيوت السيوف وغيرها من الصناعات الجلدية اليدوية، حيث كانت دكاكين هؤلاء تحيط بالمدرسة المستنصرية، وكانت الى فترة قريبة تحتل ذات الامكنة.

يرتبط مقهى الخفافين بجامع الخفافين، الذي يعود تاريخه الى نفس تاريخ بناء المدرسة المستنصرية والمقهى، حيث تفضي بوابة تاريخية من المقهى الى الجامع مباشرة، ويعد المقهى وقفا من اوقاف الجامع التاريخي.
ويقول الحنفي ان «الحرفيين من الخفافين كانوا يؤدون صلاتهم في جامع الخفافين ثم يركنون الى الراحة ظهرا في المقهى»
ندخل الى المقهى فتفاجئنا رائحة رطوبة مستقرة في جدرانه منذ مئات السنين، رطوبة مستمدة من نسيم نهر دجلة الذي يقع عليه المقهى، والغريب ان رواد المقهى يستمتعون بتكييف مناخي طبيعي، اذ لم توضع اية اجهزة تبريد، على الرغم من صيف بغداد الساخن الذي تصل درجة حرارته في شهر يوليو (تموز) حتى ٥٠ درجة مئوية.
خلف البوابة الخشبية للمقهى هناك بوابة زجاجية حديثة، على يمينها يجلس صاحب المقهى وراء طاولة صغيرة حيث جارور يجمع فيه اجور الشاي والناركيلة (الارجيلة)، بينما اصطفت خلفه، على الجدار خراطيم مختلفة للنارجيلة، هذه خراطيم، او ما يطلق عليه شعبيا بـ«القامجي» وتعود الى الرواد الدائمين للمقهى.
يرفض صاحب هذا المقهى ان يقدم ما تسمى اليوم بـ(الشيشة) و(المعسل)، بل ان رواد المقهى لا يفضلون تدخين المعسل على الاطلاق، التبغ المستخدم في الاركيلة هو التبغ الاصلي، اوراق التبغ مثلما هي بعروقها، كان يتم جلبها من شمال العراق مباشرة، ثم صارت تستورد من تركيا، حيث تنقع اوراق التبغ بالماء قبل ان توضع في فنجان يحتل اعلى الناركيلة وتوضع فوقه جمرات من الفحم المهيأ فيما يعرف بـ(الوجر) والذي يبقى مشتعلا طوال اليوم تقريبا.
تهيئة الناركيلة تحتاج الى متخصص عمله في المقهى يختلف عن عمل من يهيئ الشاي او يقدمه، وهناك بعض الزبائن الدائميين يحضرون معهم تبغهم المفضل، والتبغ في اللهجة العراقية الشائعة هو (تتن)، لهذا غالبا ما نسمع صاحب المقهى مناديا عامل الناركيلة وهو يقول له «تعال اخذ التتن».
رائحة الناركيلة هي في الغالب ما يجذب الزبائن المارين بالقرب من المقهى المظلل بسقف من الطابوق المعقود بالجص والمزخرف على الطريقة البغدادية، هذه الزخارف اختفت اليوم خلف طلاء من الدهان الابيض، كما اختفى لون الآجر الاصفر، على الرغم من ان المقهى مسجل كبناء تاريخي لا يمكن التلاعب به.
امام الباب الداخلي بمسافة تقدر بـ١٥ متراً تقع بناية جامع الخفافين بمنارتها القديمة المبنية بالطابوق والجص والمعقودة على شكلٍ اقواسٍ حالها حال الابنية القديمة، اذ تمتلك شكلاً جمالياً وحساً فنياً عالياً، وبسبب وجود الجامع الذي يلتحق به المقهى فان مقهى الخفافين حرم من تضييف قراء المقام ولم يعرف عنه عبر تاريخه ان اقيمت فيه جلسات غنائية لقراء المقام العراقي، مثل بقية المقاهي التاريخية، الشابندر او التجار، او الزهاوي او البلدية، او البيروتي، وغيرها من عشرات المقاهي البغدادية.
وكونه مقهى متخصصا في استقبال فئة خاصة من الزبائن (الخفافين) فانه لم يكن يستهوي الكثير من الفئات الاخرى، مثل الشعراء والسياسيين كما كانت مقاهي شارع الرشيد، حسن عجمي والزهاوي والبرلمان، حيث كانت هذه المقاهي دواوين ادبية وسياسية دائمة.
لكن مقهى الخفافين لم يحرم من جلوس شعراء كبار فيه امثال الرصافي والزهاوي وملا عبود الكرخي، وكما كانت تجري فيه صفقات تجارية لباعة ومشتري الجلود، فان حوارات سياسية مهمة دارت تحت سقفه بعيدا عن اعين السلطات.
وعلى الرغم من التقدم التكنولوجي الذي عصف بكل الحياة العراقية وغيرها فان مقهى الخفافين لم يستقبل حتى اليوم جهاز تلفزيون او راديو، لهذا نجد ان الصمت يستقر فيه وكأنه ينام هناك، وباستثناء احاديث الرواد الهادئة، وحركة الماء داخل زجاجة الناركيلة عندما يسحب المدخن نفسا منها، تكاد لا تسمع أي ضجيج. كان يوجد خلف الجامع والمقهى خان يسمى بخان الخفافين وهو عبارة عن (مسافر خانة) وهي تسمية عثمانية وتعني الفندق، وهو خان ملحق بالجامع اذ كان المسافرون سابقاً يقضون ايامهم فيه. وقد اصبح الخان حالياً عبارة عن مخازن للاقمشة. وعلى الرغم من اختفاء الكثير من مقاهي بغداد القديمة، وفي مقدمتها مقهى البرلمان ومقهى البلدية، الا ان فكرة المقهى كمنتدى اجتماعي رجولي بقيت لاصقة في عمارة وذاكرة وروح المدينة، اذ كان في كل شارع او زقاق او حي يوجد اكثر من مقهى، وكان يقال ان بين كل مقهى ومقهى في بغداد يوجد مقهى.
واذا كانت عمارة غالبية المقاهي تتشابه بحكم وضيفتها والفترة الزمنية التي بنيت فيها، فان مقهى الخفافين يختلف معماريا عن باقي مقاهي بغداد لارتباطه بجامع وخان الخفافين من جهة، ولقدم تاريخه من جهة ثانية.
مقهى الخفافين بني ليؤدي وظيفة معينة، استضافة زبائن معينين ومتشابهين في مهنتهم، كذلك استقبال زبائن خان الخفافين، أي انه ليس مقهى مفتوحا للجميع مثل بقية المقاهي، على الرغم من ان ذلك لا يعني انه لا يستقبل أي زبون، بل ان مكانه المحصور بين بوابة جامع الخفافين وسوقهم لا يجعله مقهى شعبيا كبقية المقاهي المنفتحة على الشوارع العامة، شارع الرشيد خاصة.
والمقهى مبني من الطابوق البغدادي الاصفر، الذي تم طلاؤه بالدهان الابيض، ومفتوح من جهة السقف، على الرغم من تغطية الفتحة بلوح زجاجي شفاف يتيح لضوء الشمس منح المكان فسحة ضوئية مترفة، وهذا السقف قابل للحركة للسماح للتيار الهوائي بتعبئة المكان وتجديد حيويته.

مجلة الف باء نيسان 1983

الخدمات البلدية في العراق

لقد تمثلت اولى الخدمات التي اضطلع بها الجهاز البلدي بافتتاح الطرق والشوارع التي ابتدأها مدحت باشا اذ لقيت البلدية في عهده دعما واسع النطاق فقد وجه اهتمامه الى الشوارع الداخلية للمدن الرئيسية وعلى وجه الخصوص بغداد التي كانت شوارعها غير مبلطة علاوة على كونها مركزاً لتجمع المياه والبرك في فصل الشتاء ، فبدأ باستخدام مادة (الزفت) في اكساء الشوارع بهدف تسهيل عملية النقل. ومنذ سنة 1317هـ/1899م قامت بلدية بغداد بحملة واسعة هدفت منها اصلاح شوارع بغداد وازقتها. ففي منطقة الكرخ تم افتتاح الشارع الواصل بين جسر الشهداء (حالياً) والكاظمية (شارع المامون) ، الذي استخدم من قبل التراموای .

كما افتتح في عهد والي بغداد ناظم باشا الشارع المعروف حالياً بشارع النهر . وفي سنة ١٩١٦ وتحديداً ابان ولاية خليل باشا (١٩١٦ . ١٩١٧) ابتدأ العمل بانشاء ما عرف (بجادة خليل باشا) ، وعند الاحتلال البريطاني اكمل انجاز هذا الشارع الذي عرف فيما بعد بشارع الرشيد .

اما بالنسبة الى البصرة التي كانت تتمتع باهمية نظرا الى موقعها الجغرافي ، فقد أولت بلديتها اهتماماً متزايداً بافتتاح عدد من الشوارع وترميمها ومنها الشارع الذي يسير بمحاذاة نهر العشار. فيما انجزت البلدية ذاتها سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م انشاء ما عرف بـ جادة (أي شارع) ، الرشادية التي تربط ما بين منطقتي البصرة والعشار وتنويرها .

فيما قامت بلدية الموصل بافتتاح عدد من الشوارع منها شارع (الصوافة) الذي تم انجازه ابان رئاسة يونس بك ال جليلي للبلدية (١٨٧٨ . ١٨٨٣) ، في الوقت نفسه قامت البلدية بفتح البالوعات (القساطل) في الاماكن المنخفضة من المدينة لتقيها من اخطار الغرق الذي تتعرض له نتيجة لتساقط الامطار الغزيرة ابان فصل الربيع، ومن ضمن الاعمال التي اسندت الى رئيس البلدية حسن افندي العمري (١٨٨٧ . ١٨٩١) قيامه بافتتاح احد الشوارع الممتدة من باب البيض الى دائرة الحكومة. فيما قامت بلدية الموصل ابان فترة رئاسة محمود بك ال شريف بك (١٩٠٤.١٩٠٨) بافتتاح شارع القشلة (شارع العدالة الان) فضلاً عن انشاء عدد من الشوارع العرضانية التي تتفرع من هذا الشارع والمؤدية الى جامع الاحمر (جامع مجاهد الدين).

وقبيل الحرب العالمية الاولى جرى افتتاح عدد من الشوارع منها شارع النجفي ، وشارع نينوى الذي تم افتتاح المرحلة الاولى منه١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م . بالإضافة الى توسيع شارع النبي جرجيس حيث نسبت هذه الاعمال الى الوالي سليمان نظيف (١٩١٣ . ١٩١٤ م) الذي كان يشرف بنفسه على هذه الاعمال باسم بلدية الموصل ، التي كان يرأسها آنذاك أمين افندي، ونتيجة لنقل الوالي المذكور الى بغداد توقف العمل باكمال شارعي (النجفي ونينوى) لتكمل القوات البريطانية انجازهما فيما بعد.

وفي هذا المجال كان لبلديات الاقضية بعض الانجازات فعلى سبيل المثال لا الحصر قامت بلدية اربيل التابعة لسنجق كركوك بافتتاح شارع السراي الذي عد اول شارع يتم افتتاحه ابان تلك المرحلة.

ومن المهام الاخرى التي اوكل الى جهاز البلدية القيام بها انشاء عدد من الجسور في مراكز الولايات وفي الاقضية والنواحي . ففي سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م . ابدت بلدية بغداد استعدادها لاكمال احد الجسور في الفلوجة. فضلاً عن انشائها لعدد من الجسور في عانة،والكوتوالفلوجة. كما اعلنت البلدية خلال ولاية ناظم باشا (١٩١٠.١٩١١) عن مناقصة تشييد جسر حديدي في ولاية بغداد. الا ان المشروع لم ينفذ. ويرجح بعض

الدارسين سبب عدم تنفيذ هذا المشروع الى نقل الوالي المذكور.

كما اسند الى البلديات تعمير عدد من الجسور الخشبية التي كانت تتعرض للانقطاع المستمر في اثناء مواسم الفيضان، ومنها الجسر الخشبي الذي يربط جانبي بغداد الكرخ والرصافة ، اذ قامت بلدية بغداد بتعمير هذا الجسر ولاكثر من مرةوامام الانقطاعات المستمرة التي تعرض لها الجسر ناشدت جريدة (صدى بابل) بلدية بغداد بضرورة تفقد أحوال الجسر وإجراء الإدامة المستمرة عليه. ونظراً لطبيعة البصرة المتصلة بشبكة واسعة من الانهر الرئيسية والقنوات ، كان إنشاء المعابر والجسور والقناطر احد ابواب الصرف الرئيسية لميزانية البصرة ، وعلى هذا الاساس تم انجاز عدد من الجسور ، ففي سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م انشئ جسر للسابلة على نهر الخندق ، اعقبه انشاء جسور اخرى ومنها(الدروبي ، والبيرج ، والبدعة) ، كما اقيم عدد من الجسور على بعض من الانهار ومنها ، نهر السراجي ، ونهر الحمدان ، ونهر الحرب ، ونهر الخورة ، فضلاً عن تعمير عدد من الجسور ومنها جسر الجلبية ، والفرسي ، والعباسي ، والصبخة ، وفي سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م اعادت

هذه البلدية تعمير الجسر الذي يقع على طريق البصرة . الزبير.

اما الخدمة الاخرى التي انيطت بالدوائر البلدية فقد تمثلت بانارة الطرق والشوارع ، في حين لم تملك البلديات اي مشروع لانارة الدور سوى الفوانيس المضاءة بالنفط التي ابتدأ العمل بها في بغداد سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، الا انها لم تشمل بغداد كلها ، فعلى سبيل المثال قامت بلدية بغداد الاولى سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م بتنوير معظم المناطق التي تقع ضمن حدودها بالفوانيس. كما قامت البلدية بتعليق مئتي فانوس في المناطق التابعة لها. واسندت وظيفة الاضاءة الى (اللمبجية) ، الذين كانوا يطوفون الشوارع لايقاد الفوانيس. كما عرفت بعض الاقضية خدمات الانارة ومنها قضاء الدليم. وقضاء الصويرة.

اما بالنسبة لولاية البصرة ، وكما هو الحال بالنسبة لباقي الولايات فقد اقتصرت الانارة فيها على بعض الشوارع ومنها (جادة البلدية) و(البوزخانة) و(التلغراف) و(الحميدية) وجادة الرشادية) ، وفي سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م ، قامت بلدية البصرة بنصب عدد من الفوانيس في عدد من الاماكن.

واما ولاية الموصل ، فأرخت بعض المصادر البلديات الاولى لهذه الخدمات برئاسة سعيد ال قاسم انما السعرتي للبلدية (١٨٩٨.١٩٠٤م) حيث تمت إنارة طرق المدينة بالمصابيح الزجاجية التي توضع داخلها الفوانيس وتضاء بالنفط الابيض.

كما اهتمت البلديات بموضوع اسالة المياه ، اذ افتقر العراق الى هذه المشاريع باستثناء المحاولة الوحيدة التي قام بها والي بغداد (داؤد باشا) (١٨١٦ . ١٨٣١م) ، عندما قام بنصب احدى المضخات على نهر دجلة التي قامت بتزويد الناس بالمياه ، الا ان الاهمال سرعان مالحق بالمشروع بعد مدة قصيرة من أقامته، وبالتالي استمر الناس في تلبية احتياجاتهم من مياه الانهر التي تولى السقاءون مهمة نقلها في قرب مصنوعة من جلود الحيوانات.

كما نالت شؤون السقايات (اي محلات شرب الماء) في الولايات العراقية ، اهتمام عدد كبير من الولاة والمسؤولين في الدولة والاعيان واهل الخير الذين دأبوا على اقامة مثل هذه لمشاريع التي اطلق عليها اسم (السقايات) او (السبيلخانات)، واوقفوا لها الحجج والوقفيات الشرعية والرسمية ، كما ثبت بعضهم عدد العاملين في خدمة (السقاية) ، وحددت رواتبهم بدقة.

بدأ التفكير الجدي لانشاء اول مشروع لاسالة الماء في عهد الوالي مدحت باشا من خلال ربط دور بغداد وسقايتها العامة بانابيب تضخ اليها المياه من خلال مكائن حديثة يتم نصبها في اماكن مختلفة على شواطئ دجلة ، على ان يعهد الى بلدية بغداد مهمة ادارتها ، وبغية وضع هذا المشروع موضع التنفيذ ، اوعز مدحت باشا باستيراد خمسة مكائن من لندن ، قوة كل واحدة منها (١٢) حصان ، وتم نصب احداها في مشروعه الميدان على سبيل

التجربة. الا ان العمل في هذا المشروع تأخر الى ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م ، ولم يغط سوى حاجة حي واحد من احياء بغداد.

وفي محاولة لتوسيع هذا المشروع قامت بلدية بغداد سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧ باستيراد المكائن الخاصة لهذا الغرض. حيث تم نصبها في نفس مكان المشروع القديم ، وجرى تزويد محلات الميدان وبعض الحيدرخانة والصابونجية وجديد حسن باشا والطوب (الطوبخانة) بالماء ، وبلغ مجموع الدور التي استفادت من هذا المشروع (٣٠٠) دار. وقد عد هذا المشروع من وجهة نظر بعض الدارسين أول مشروع لإسالة الماء في العراق. وفي سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠ تم نصب ماكنة مشابهة عند دولاب الشيخ عبد القادر الكيلاني ، إذ الغي العمل بالدولاب ومدت الانابيب المعدنية تحت الارض وبخط مستقيم الى جامع الشيخ عبد القادر.

مع نهاية سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م قامت بلدية بغداد الثانية بتشغيل مضخة ماء اخرى لتزويد الاحياء الجنوبية في جانب الرصافة. اما عن اجور ايصال الماء للدور فكانت زهيدة اذ كانت البلدية تستوفي اجور ماء مقطوعة قدرها ١٠ قروش عن كل دار.

اما فيما يتعلق بإدارة المضخات ، فكان هناك قسم خاص تابع لدائرة البلدية الاولى في بغداد ، تألف من مشغل المضخة وعامل واحد ، ليزداد هذا العدد ١٣١٠هـ/١٨٩٢م الى أربعة عمال عدا المشغل ، كما عين عامل اخر بعنوان محصل ، اوكلت اليه مهمة استيفاء اجور الماء من اصحاب الدور التي تصلها مياه الاسالة.

فيما شرعت بلدية النجف سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م بمحاولة ايصال الماء إلى هذا القضاء من نهر الفرات باستخدام المضخات ، إذ احيل تنفيذ المشروع إلى شركة جون جاكسون لاجراء المسوحات اللازمة ، وقامت الشركة المذكورة بالاتفاق على استيراد (٢٥٠٠) انبوب قطر الانبوب الواحد ١٤ انج ، ويبدو ان ظروف الحرب العالمية الاولى هي التي عطلت تنفيذ هذا المشروع.

حاولت بلدية البصرة تنفيذ هذه المشاريع. لكن صعوبات عديدة حالت دون تنفيذها حيث أرخت المصادر احدى هذه المحاولات بسنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م ، عندما قررت بلدية البصرة ، تزويد المدينة بالمياه من شط العرب الا ان المشروع تعرض للتوقف ولا كثر من مرة بسبب تغيير الولاة . فكان ذلك مدعاة لشكاوى الاهالي ، فقد ذكرت جريدة (بصرة) في احد اعدادها بان معظم الناس ياخذون ما يحتاجون من مياه نهر العشار ، الذي اصبحت مياهه غير صالحة للشرب ، لان اكثر السفن والوسائط النهرية تمر فيه كما ان المجاري في المدينة اخذت تصب في نهر العشار فتلقي الاوساخ والقاذورات فيه.

واستجابة لهذه الطلبات وبالنظر لاهمية نهر العشار أسهمت بلدية البصرة وبالاشتراك مع دوائر اخرى في تطهير هذا النهر في السنوات ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.

ولم تكن في ولاية الموصل وحتى العقد الاول من القرن العشرين مثل هذه المشاريع. مما جعل مواطنيها يعتمدون على السقائين او مياه الآبار في سد احتياجاتهم من الماء

اما في الحقل الصحي فاوكل الى البلديات مهمة الاشراف على المستشفيات الموجودة في الولايات العراقية وهي مستشفى الغرباء في بغداد (غربه خسته خانة سي) . حيث تولت الدائرتان البلديتان الاولى والثالثة أمر الانفاق عليها. ومستشفى الغرباء في البصرة الذي تم انشاؤه سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م ، حيث تولت بلدية البصرة ، إصدار نشرة أسبوعية تتضمن عدد المرضى الراقدين في المستشفى المذكور وعدد المرضى الذين تم علاجهم ، واعداد الوفيات. فيما قامت بلدية الموصل وتحديدا سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م بانشاء مستشفى الغرباء في الموصل.

اوجب نظام (الادارة العمومية الطبية) الصادر سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧٠م على البلديات الرئيسة والفرعية ، القيام بفتح صيدليات عامة لتزويد الفقراء بالادوية مجانا حيث عرفت هذه الصيدليات بـ أجزاخانة (صيدلية) البلدية منها على سبيل المثال الصيدلية التي تولت بلدية بغداد افتتاحها في منطقة الا عظمية. كما افتتحت صيدليات اخرى في عدد من الاقضية ومنها على سبيل المثال في قضائي الحلة، وكربلاء.

كما الحق ببعض البلديات ومنها بلدية البصرة ، مستوصف يتكون من بضع شعب للخدمات الصحية والوقائية. واوكل الى احد الاطباء ادارة هذا المستوصف اذ كان من ضمن واجباته تفتيش المرافق الصحية ومجاري المياه والاشراف التام على محلات بيع الخضار والفاكهة والمطاعم والخانات. فضلا عن المدابغ والمجازر ، حيث نشرت جريدة (بصرة) التماسا الى طبيب المدينة طالبت فيه (بضرورة فحص الأغنام التي يذبحها الجزارون .. بسبب حدوث حالات ذبح اغنام ضعيفة وغير صالحة للأكل). وحفاظا على الصحة العامة ، قلمت بلدية الموصل ابان مدة رئاسة سعيد بن قاسم اغا السعرتي (١٨٩٨-١٩٠٤م) بنقل معمل الدباغة الاهلي والمجزرة من داخل المدينة الى خارجها. كما دأبت البلديات ، وفي محاولة منها للحد من انتشار الامراض السارية ، على اصدار سلسلة من التدابير الصحية ، فعلى سبيل المثال الزمت الدوائر البلدية في ولاية بغداد اصحاب المقاهي بتنفيذ عدد من التعليمات الخاصة بالنظافة .

وأوجبت بلدية الموصل عام ١٣٢٩هـ/١٩١١ على ارباب الحرف وصناع الحلويات وبائعي الحليب بإستحصال اجازة قبل ممارسة العمل مشروطة بتفتيش الطبيب لمحالهم، كما طالبت أصحاب المطاعم والمشروبات الكحولية باستحصال مثل هذه الاجازة.

وكانت احدى الواجبات الاساسية التي اضطلعت بها الدوائر البلدية العناية بالنظافة العامة لما لذلك من علاقة بالصحة العامة ، اذ شرعت الدوائر البلدية بتعيين ملاك وظيفي للقيام بهذه المهمة تألف من عدد من المأمورين والمراقبين وعمال التنظيف ، كما جرى توزيع عدد من المأمورين على المحلات لمراقبة عمال التنظيف فيها وتخويلهم صلاحية إنزال العقوبات بالمقصرين في اداء واجباتهم. كما الزمت البلدية الناس واصحاب المحلات بالمحافظة على النظافة. وفي هذا المجال اعدت البلديات عربات خشبية لجمع القمامة من الدور.

واسندت الى البلديات مهمة اطفاء الحرائق اذ اناط قانون الولايات مهمة مراقبة الحرائق والأخبار عنها وإطفائها الى البلدية ، واوكل القانون المذكور الى مراقبي البلدية مهمة الاتصال باقرب نقطة والمشاركة في عملية الاطفاء ، ومراقبة السقائين من خلال جلب المياه الى مواقع الحريق لاخمادها وفي سنة١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨ م صدر (نظام منع الحريق) الذي حدد بموجبه واجبات البلدية تجاه مراكز الحريق من خلال تزويدها بالادوات الخاصة بالاطفاء

كما حدد القانون مسؤولية البلدية بالاشراف على عمليات الاطفاء. وكاجراء وقائي لجأت بلدية بغداد الى اتخاذ عدة اجراءات للحد من ظاهرة الحرائق في اسواق بغداد عندما قامت بتغيير المادة التي كانت تسقف بها هذه الاسواق من الحصران والقصب الى مادة الزنك.

وشجعت البلدية الاهالي على اقامة المطاحن ومعامل الثلج. فعلى سبيل المثال قام احد التجار ويدعى محمد الشابندر باستيراد ماكنة صنع الثلج ووضعها تحت تصرف البلدية( ) حيث تولت البلدية بيعه بمقدار (١٠) بارات للكلغم الواحد. كما انتشرت معامل الثلج في الموصل، والبصرة ، فضلا عن عدد من المعامل الصغيرة في كل من العمارة والقرنة والناصرية .

وكان للدوائر البلدية إسهاماتها في تحديد اسعار المواد الغذائية ومنع احتكارها ولاسيما اللحوم والرز والنفط والدهن والصابون وتوحيد الاوزان والمكاييل الا ان هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح.

وكان من ضمن واجبات البلديات الاخرى مراقبة كل ما يمكن ان يخل بالآداب العامة والأخلاق والقانون ، فعلى سبيل المثال دعت جريدة (الزوراء) رؤساء البلديات الى منع دخول الاشخاص عراة الاجسام الى الماء لان ذلك يتنافى مع الذوق العام لذلك اتخذت البلديات الاجراء اللازم لمنع ذلك.دعت الجريدة نفسها إلى فرض الجزاء النقدي على السقائين الذين يحملون الماء على الحيوانات ويعاملونها بقسوة. واشرفت بلديات بغداد على سير حيوانات النقل. كما قامت البلديات نفسها بجمع الحيوانات المؤذية وابعادها عن المدينة وتشجيعا من والي بغداد ناظم باشا (١٩١٠-١٩١١م) للنقل النهري ، فقد امر بجلب اربعة مراكب صغيرة على نفقة البلدية. جرى الاتفاق على تسيير اثنين منها في الفرات واثنين في دجلة. وقد بوشر بهذا المشروع بالفعل. إلا انه لم تتوافر في المصادر تفاصيل كافية عن الرحلات النهرية للمشروع ، ويبدو ان هذا المشروع لاقى بعض النجاح نتيجة للدعم الذي قدمه هذا الوالي ، إلا ان هذا المشروع تعرض للإهمال بعد عزل هذا الوالي إلى الحد الذي اضطرت الهيئة المشرفة على المشروع إلى بيع هذه المراكب بالمزايدة.

واوكل إلى البلدية ايضا انشاء مستودعات لحفظ المواد القابلة للاشتعال حيث وضعت شروط وضوابط لانشائها.وبجهود من البلدية تم تأسيس مشاريع للنقل بالعربات التي تجرها الخيول ومن ذلك ما حصل في بغداد سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م ، والموصل سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، والبصرة سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م.

كما قامت البلديات بانشاء بعض الابنية العامة حيث قامت بلدية البصرة سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م بانشاء بناية للجندرمة ودائرة البلدية. فضلا عن العديد من الدور لسكان الصرائف.

في حين شرعت بلدية بغداد الثانية بانشاء محلين احدهما خاص ببيع الخضروات والثاني لبيع الوقود وفي سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م شيدت الدائرة البلدية الثالثة مسرحا عاما استمر في العمل حتى قيام الحرب العالمية الاولى.

وقامت بلدية الموصل بانشاء عدد من الدوائر الحكومية ومنها دار البلدية ودائرة المحكمة الشرعية ودائرة للجندرمة كما قامت بافتتاح معرض ، وتأسيس قاعة للمطالعة ، وانشاء دار للضيافة ومدرسة اعدادية. وتعمير جامع النبي شيت. وفي سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م انجزت البلدية اول خريطة لبلدة الموصل. كما قام بعض الولاة ورؤساء البلديات بردم الخنادق المحيطة بالمدن ومنها الموصل، وبغداد ، التي اصبحت موطنا للامراض والاوبئة.

وكان من ضمن الواجبات التي كلفت بها البلدية الاشراف على ادارة مدرسة الصنائع، بوصفها احدى المؤسسات الخيرية التي اوكل اليها تعليم الاطفال وتدريبهم على اتقان المهن. وفي هذا المجال قامت بلدية الموصل ، ابان رئاسة سعيد بن قاسم اغا ال سعرتي بإنشاء مدرسة الصنائع في الموصل.

كما اضطلع المجلس البلدي في كل لواء بعدد من المهمات في اثناء الانتخابات النيابية لمجلس المبعوثان منها :

١. تنظيم دفاتر نفوس الاهالي وتوقيعها تمهيدا لاجراء الانتخابات .

٢. عهد إلى مدراء النواحي والقساوسة والمختارين ان يجتمعوا برئيس بلدية اللواء والقضاء ليبلغهم أصول مسك الدفاتر الخاصة بالانتخاب .

٣. تعهد البلدية بطبع قوائم بأسماء المرشحين تمهيدا لتعليقها في المحلات والساحات العامة.

٤. دعوة المنتخبين الثانويين لانتخاب اعضاء مجلس المبعوثان.

عن كتاب تاريخ الحياة الاجتماعية في العراق
تأليف عزيز قادر

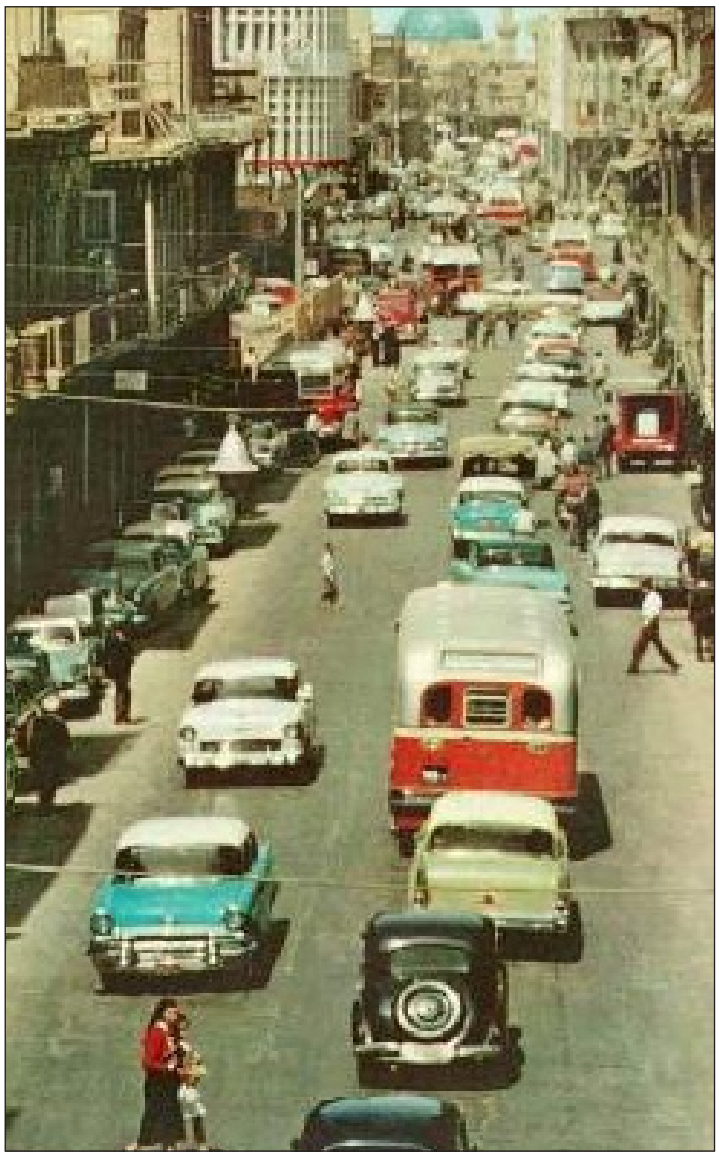

يعد الطبيب الراحل صبري القباني (1908-1973) من اكثر الاطباء العرب شهرة في الاوساط الطبية والثقافية وفي اوساط الناس عموماً فقد نشأت بينه وبين الاف القراء على اختلاف اعمارهم علاقة حميمة من خلال مجلته الشهرية (طبيبك معك) والتي اصدرها اول مرة عام 1956 ومؤلفاته العديدة واهمها ، (الغذاء لا الدواء) . (حياتنا الجنسية) ، (اطفال تحت الطلب) ، (جمالك سيدتي) ، (اولادنا كيف نصارحهم) ، (قلوب الاطباء) ، (يوميات طبيب) وغيرها إضافة الى برامجه الاذاعية الناجحة واهمها (طبيبك وراء المذياع) و(طبيبك يتحدث اليك).

بعد 37 عاماً على رحيله

من ذكريات د . صبري القباني في العراق

طارق ابراهيم

×تسعة اعوام في العراق

امضى الطبيب الراحل اكثر من اربعين عاما من حياته في ممارسة مهنة الطب، وكثيرون من ابناء هذا الجيل لايعرفون عنه كونه عمل طبيباً في العراق زهاء خمسة اعوام وذلك في اوائل الثلاثينيات حيث التحق بطبابة الجيش العراقي عام ١٩٣٢ وبعد فترة نقل الى السلك المدني فعمل جراحاً في عدد من المستشفيات العراقية ثم عين رئيساً لصحة لواء الحلة (محافظة بابل) وفي عام ١٩٣٦ نقل الى لواء اربيل حيث عمل طبيبا في مستشفى المدينة ثم اصبح طبيباً للمرحوم الملا ابو بكر افندي (١٨٦٥ – ١٩٤٢) ابرز وجهاء المدينة انذاك والذي خصص للدكتور القباني مرتباً شهريا مساويا لما كان يتقاضاه من الدولة فاستقال من الوظيفية وبدأ يمارس عمله في عيادته الخاصة كطبيب متخصص بالامراض الداخلية، وبعد ان امضى خمسة اعوام في اربيل عاد الى دمشق اثر اخفاق ثورة مايس عام ١٩٤١.

×كتابات في صحف الموصل

وقد استعاد المرحوم القباني بعض ذكرياته عن فترة عمله في اربيل عبر مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة (الاسبوع العربي) اللبنانية في كانون الاول عام ١٩٦٦ حيث قال "ان عمله في اربيل كان غير مرهق والفراغ كبير فعكف على القراءة وكتب في صحف الموصل زوايا صغيرة ما اوقد في نفسه رغبة الكتابة والنشر.." .

×صداقة مع مسعود محمد..

ومن الذين عاصروا الطبيب الراحل وارتبطوا بعلاقة صداقة معه خلال فترة اقامته في اربيل السيد مسعود محمد (٧١ عاما) الشخصية الكردية المعروفة والوزير السابق والذي حدثني عن بعض ذكرياته معه وقد نشرت ذلك في كتابي الموسوم (شخصيات تتذكر) الذي صدر الجزء الاول منه عام ١٩٨٨ حيث ذكر لي انه خلال فترة دراسته الثانوية باربيل في أواخر الثلاثينيات كان مقيماً في دار المرحوم الملا افندي وقال: (يومها كان المرحوم الدكتور صبري القباني يعمل طبيباً في مستشفى المدينة، وكان صديقاً وطبيباً للمرحوم الملا افندي ولعائلته وكثيراً ماكنا نلتقي معه انا والسيد عز الدين الملا نجل المرحوم افندي الذي اصبح فيما بعد وزيراً في العهد الملكي، وكنا نحضر الجلسات الاجتماعية التي كانت تعقد في بيته وكان القباني يضفي على تلك الجلسات روح المرح، واتذكر انه كان يملك مجموعة اسطوانات لاغاني أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب لم نكن قد سمعناها فاستمتعنا بها انذاك).

ويجد القارئ الى جانب هذا الكلام صورة تذكارية يبدو فيها السيدان مسعود محمود وعز الدين الملا مع المرحوم القباني وقد التقطت الصورة في نيسان عام ١٩٣٧ اثناء القيام بسفرة ربيعية في ضواحي اربيل.

ويذكر الاربيليون القدامى من معاصري القباني ان عيادته الخاصة انذاك كانت تقع قرب صيدلية الشمال التي ما تزال قائمة حتى الان وهي اقدم صيدليات المدينة حيث كان يمضي فيها اوقات فراغه ويتجاذب مع صاحبها الصيدلي المرحوم بولص مرزا اطراف الحديث عن شؤون الادوية يومذاك.. كما يذكرون ايضاً ان زوجة القباني ووالدته رافقتاه خلال فترة اقامته في اربيل.

×اغرب عملية ولادة في اربيل!

في عام ١٩٧٠ اصدر الدكتور القباني كتابا في بيروت بعنوان (يوميات طبيب) وقد تضمن خواطر ومفارقات وصوراً واقعية من الحياة والمجتمع سجلها استناداً الى خبرته وممارسته لمهنة الطب خلال الاعوام الكثيرة التي عالج فيها مرضاه وهم من جميع فئات الناس فخفف عن صدورهم اعباء المرض..

وفي واحدة من يومياته تلك والتي حملت عنوان (معركة في الظلام) تحدث المرحوم القباني عن احرج موقف تعرض له ذات يوم من شهر آب عام ١٩٣٧ حين كان مقيما في اربيل.

وخلاصته انه بعد ان اصبح موضع ثقة المدينة واهلها الذين صاروا يطرقون بابه طلبا للعلاج فقد جاءه ذات مساء رجل مستنجداً بأن زوجته في خطر وقد تعسرت ولادتها منذ ثلاثة ايام وهي بين الموت والحياة!

فحمل حقيبته الطبية ورافق الرجل الى حيث داره وبعد ان اجرى الفحص التمهيدي السريع لزوجته التي كانت تئن نتيجة الام المخاض تبين له ان هناك نزفاً وحالة شاذة تعارض فيها الجنين بين اليمين واليسار ولم يبد سوى ذراعه التي اقتلعت نتيجة الجذب والشد وانها قاب قوسين او ادنى من الموت المحتم اذا لم تنقذ بتفتيت الجنين بعملية سريعة!!

وحين افضى بهذه الحقيقة الى زوجها قال له بحزم انه لايسمح بذلك حتى لو فقد امرأته وان موتها خير من ان يشوب سمعته حديث الناس لانه اظهر غريبا على زوجته!!

لقد كان الرجل من المحافظين على عاداتهم الموروثة وممن لايكشفون من نسائهم لبصر الطبيب سوى موضع الابرة ، بل لايسمحون له بأن يزرق مريضته الا من فوق العباءة!!

كانت الزوجة المسكينة تقف على حافة النهاية وهي في ريعان شبابها اما انينها فقد كان توسلاً في التشبث بآخر خيوط الحياة.

ولم يكن امامه كطبيب سوى احد الامرين اما ان يسد اذنيه عن نداءات المرأة المسكينة فيحمل حقيبته الطبية ويعود من حيث اتى او يكافح المستحيل والعقلية المتحجرة لينال الراحة التي يطلبها الطبيب في شعوره بأنه ادى واجبه الانساني على اكمل وجه.

وبينما هو في هذا المأزق راودته فكرة باجراء العملية للمرأة وهو معصوب العينين يعمل بيديه دون بصره!!

فعرض الفكرة على الرجل وحظيت بموافقته ، لقد كان اجراء مثل هذه العملية الغريبة مجازفة له ولكن موت المرأة كان محققاً اذا تركها وذهب لشأنه فما كان عليه الا ان اختار ايسر الطريقين على امل ان يؤدي واجبه ويترك البقية لعناية الله.

وفي بضع دقائق كانت ممرضته الى جانبه تشد أزره وتعيره عينيها ليبصر بهما ما لا تبصره عيناه المعصوبتان بشدة!

فبدأ بإجراء العملية واخذت يداه تتحركان بسرعة والممرضة تناوله اداة فأداة تلبية لطلبة واستخرج الجنين واستغرق ذلك كله ساعة وبعض ساعة كان خلاله يسبح في عرقه وهو كتلة من الارادة..ولم توقظه من هذه الحال الا تنهيدة ارتياح ندت عن صدر المرأة وكان جزاؤه على هذا المجهود ثوابا لم ينسه اذ امتدت من تحت العباءة يد ناعمة شدت كفه وطبعت عليها قبلة الشكر.

وفي صباح اليوم التالي كان القباني يدخل في حديث طابعة السؤال والجواب مع صديق له كان قد سمع من الناس خبر الليلة الماضية وانتهى الحديث الى ذهول شديد اصاب صديقه من ان المعجزة قد تأتي في بعض الاحيان على ايدي البشر!!

صورة تعود لعام ١٩٣٧ يبدو فيها مسعود محمد وعز الدين الملا والدكتور صبري القباني اثناء القيام بسفرة في اربيل

عمل طبيباً في أربيل ونشر أولى كتاباته في الموصل

أجرى عملية ولادة وهو مشدود العينين فأصبحت حديث الناس

سعاد الهرمزي من الذاكرة
وحوار مع جميل بشير

ولد سعاد الهرمزي في العام 1927 في مدينة كركوك.. واستهوته الموسيقى والغناء وهو في العاشرة من العمر.. لم يكمل دراسته العالية ولكنه تعلم كثيراً خارج نطاق الدراسة.. اهتم بترصين لغته العربية منذ الصغر وختم القرآن الكريم وهو في الثامنة من العمر..

جميل بشير

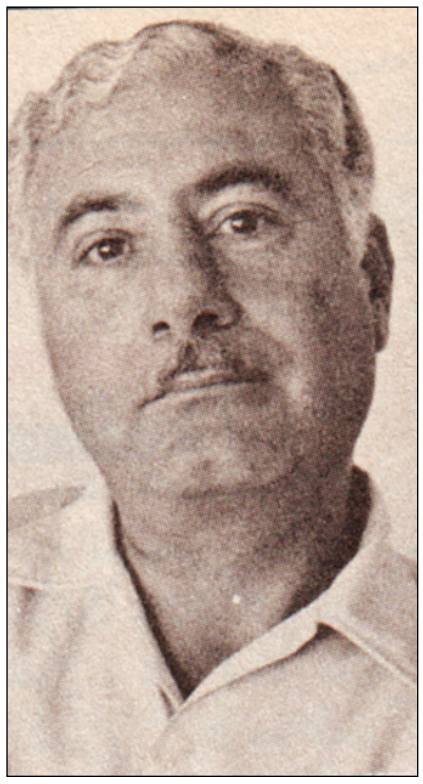

سعاد الهرمزي

دخل الإذاعة العراقية وعمره واحد وعشرون عاماً واستطاع أن يحتل مكانه في عربات الدرجة الاولى من قطارها المليء بالأصوات الرنانة وبقي محافظاً على هذا المقعد على الرغم من تقلب الظروف السياسية وأمزجة المسؤولين فيها حتى توفاه الله تعالى .

دخل الإذاعة العراقية عام ١٩٤٨ ومن ذلك التاريخ أخذ يوالي نشاطه الإذاعي فكتب وقدم عشرات البرامج الاذاعية الناجحة.. ومن أهم برامجه الاذاعية الناجحة برنامج((الساعة ٩)) وبرنامج ((من الذاكرة)) في مستهل حياته عمل صحفياً. ورأس تحرير صحيفة اسبوعية وهو في العشرين من العمر ومارس النقد السينمي في عدد من الصحف والمجلات العراقية وهو أول ناقدً سينمي في تأريخ الصحافة العراقية..

سجل لمعهد التدريب الإذاعي في القاهرة في العام ١٩٥٩ موضوعاً عن الصوت والالقاء فطبع هذا الموضوع واصبح مادة تُدرس في ذلك المعهد وصارت مادة دراسية فيه ضمن المواد المقررة من مؤلفاته.. محمد عبد الوهاب المزاوجة الماهرة بين القديم والحديث.. وأم كلثوم صوت الغناء التأريخي. وخواطر الأيام بجزءين.. ونقطة حبر. وأربعة اجزاء من برنامج الذاكرة واصوات لا تُنسى. وأوراق قديمة. لديه مكتبة عامرة تحتوي على اقدم المجلات الفنية والكتب الموسيقية عرضها للبيع في تسعينيات القرن الماضي لحاجته المادية.

وتوفي في ١٩٩٨ ...رحم الله سعاد الهرمزي الانسان والصوت والمربي

ذكريات عن الفنان الموسيقار جميل بشير

عندما التقيته لااخر مرة وهو ذاهب الى لندن لم يخطر ببالي انه لن يعود .... وقال لي ان غيبته لن تطول وسيعود الى بغداد سريعا لانه على موعد مع موسيقار ايطالي كان قد اتفق معه على صياغة معزوفة من نوع جديد تجمع بين سحر العود الشرقي والاوكورديون الغربي وانه سيتقن عزفها في لندن .

كان عوده الطروب يتوسط صندوقه وهو يحمله بانتظار صعود الطائرة قرأت في عينيه فرحة غامرة لم أرها فيه من قبل ..فقلت له هل انت مهتم بهذه المعزوفة الى هذا الحد فقال انها تمثل قصة حياتي وعبرت عنها بالنغم وسيعزفها معي حوالي عشرين عازفا ولكن زميلي الايطالي مهم جدا ودور العود سيكون رئيسيا ثم يليه الاوكورديون في الاهمية .

قلت له يسعدني ان احضر التسجيل قال ستحضر وسترى اول عمل تعبيري حقيقي لي وذهب جميل بشير الى لندن ولم يعد من هناك ابدا ولم تسجل المعزوفة .....

عرفت جميل بشير قبل ٣٦ عاما وكان يقود فرقة الاذاعة الموسيقية وكان يعزف على الكمان وليس العود ولم اره يعزف على العود قط . ولكني فوجئت به مرة وانا ازوره في منزله وهو يحتضن العود ويعزف عليه انغاما كانت من الروعة والعذوبة والسلاسة بل البلاغة بحيث لم تزل في ذاكرتي الى اليوم ... كان يترنم بمعزوفة الشريف محيي الدين حيدر الشهيرة ليت لي جناح ودهشت لعزفه الشجي وسألته هل تعلمت العود حديثا فاجاب اني اعزف العود منذ كنت طفلا ولكن لا يعرفوني غيرعازف كمان ان هوايتي هي العود اما الكمان فهو وسيلتي للعمل في فرقة الاذاعة الموسيقية .

قلت له يخيل لي انك تحب العود اكثر قال فعلا واني احاول ان اثبت اهمية العود في الموسيقى الشرقية وان اجعل دوره اكبر بالفرقة الموسيقية وان يثير اهتمام العالم كله .ولم يمض عامان على هذا الحديث حتى تفرغ جميل للعود وكان ابداعه وتفوقه في هذه الالة الشرقية مثار اهتمام العالم العربي والاوربي.

ان الطريقة الساحرة التي كان يعزف بها جميل بشير والتكنيك المتطور الذي استسقاه من استاذه الشريف محي الدين حيدر قد لفت انظار الموسيقيين اليه ولن ينسى دوره في نشر الموسيقى العراقية في الخارج ، وقد اسعدني يوما وانا في اسطنبول ان استمع الى معزوفته الشهيرة (شلالات) وهي تعزف في كازينو يطل على بحر مرمرة وعندما سألت احد اعضاء الفرقة الموسيقية التركية عن صاحب المقطوعة قال انها لاستاذنا العراقي جميل بشير .

لقد رحل جميل بشير مبكرا وذبلت اناملة الذهبية قبل الاوان ولكن عزاءنا انه ترك لنا تراثا من الموسيقى والعزف سيبقى اثرا بارزا على ابداعه وموهبته وفنه الراقي .

عن كتاب من الذاكرة لسعاد الهرمزي

تعرض المجتمع الموصلي في فترة الحكم العثماني الى متغيرات حسب ظروف الدولة العثمانية في الجوانب السياسية والعسكرية ، اذ انعكس ذلك على المجتمع الموصلي . ولذلك يلاحظ التحاق بعض شباب الموصل ابان اندلاع الحرب العثمانية-الروسية (1877-1878م) والمعروفة في تاريخ الدولة العثمانية بـ (طقوسان أوج) ، أي حرب الثالثة والتسعين ، اشارة الى العام الذي حصلت فيه الحرب ذاته الموفق 1293رومية/1877م ، في حين عرفت هذه الحرب لدى العراقيين ومنهم الموصليون بـ (طقنا ووز) ، وتجدر الاشارة الى ان المشاركين من اهالي الموصل كانوا ضمن القوات العراقية الاخرى التي قدر عددها بـ (ثلاثة عشر فوجا) ، الى جانب مجاميع اخرى من المتطوعين انتظموا مع القوات العثمانية.

الموصل في ظل الحروب العثمانية

قدم أهالي الموصل التضحية في هذه الحرب أسوة باخوانهم في سائر المدن العراقية اذ بلغت تضحياتهم ما يقرب (٨٠٪) من المجموع الكلي لاعداد العراقيين الذين اشتركوا في الحرب ، وتوفي معظمهم بسبب البرد الشديد وعدم توفر الغذاء ولذلك لم يعد الى مدينة الموصل الا العدد القليل من الجنود.

وكان اندفاع أهالي الموصل للاشتراك في هذه الحرب بنخوة اسلامية خالصة ، وذلك لان الدولة العثمانية هي دولة اسلامية حاربت وقارعت الدول الاجنبية التي استهدفت الارض الاسلامية ، وظهر العنصر الجهادي لاهالي الموصل في هذه الحرب من خلال اشتراك بعض مشايخهم في هذا الجهاد وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن الشيخ محمد طاهر الخالدي النقشبندي ، اذ ودع اهالي الموصل المجاهدين بنشيد محتواه الدعوة للجهاد وحسن الظن بالله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله.

كما اشترك بعض أهالي الموصل الى جانب القوات العثمانية في الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤م ، وعرف المشتركون الموصليون في هذه الحرب بتسمية (طابور ابو شخاطة).

ويبدو ان اشتراك اهالي الموصل بهذه الحرب لم يقتصر على من تقدم ذكرهم ، اذ استعين بالمساجين لغرض سوقهم في هذا الطابور ، ولغرض الثقة بالسجين الذي سوق للاشتراك بالحرب ، فان السلطات العثمانية طلبت ان يكون هناك كفيل من كل سجين يشترك بالحرب ، وفي حالة عدم وجود الكفيل يحضر شخصان يشهدان على ان السجين يمكن الاعتماد عليه في الحرب ، ويبدو ان اشتراك السجناء في الحرب كان نظير اطلاق سراحهم من السجون.

٢. الاوبئة والمجاعات في الموصل :

شهدت الموصل مجاعات عديدة كتلك التي حدثت في عامي ١٧٩٤ و١٧٩٥ ، حيث ترافق غزو الجراد مع موجات البرد فأكل الجراد ثلث مزروعات قرى الموصل فيما أتلف البرد زروع (٤١) قرية اخرى ، وفي حزيران عام ١٧٩٥م غزا الجراد الموصل وأتلف محاصيل الحبوب من الحنطة والشعير ، والتهم محصول القطن المزروع في اطراف الموصل وشهدت الاسواق غلاء الاسعار.

وفي عام ١٧٩٩م ظهر الجدري في مدينة الموصل وظهرت أول اصابات بالمرض في محلة خزرج ، ثم أخذ يسري نحو المحلات الاخرى ، واستمر هذا المرض الخطير يفتك بأرواح الناس حتى منتصف شهر صفر سنة (١٢١٥هـ/١٨٠٠م) وبلغ عدد المصابين الذين لقوا حتفهم في اليوم مائة وثمانين نسمة( ) ثم انتقل الى كركوك والسليمانية .

وفي عام (١٢١٥هـ/١٨٠٠م) سرى الطاعون في اكثر احياء الموصل ، وبلغ عدد الذين لاقوا حتفهم في اليوم "مائة وثمانون او اقل خمسة" . وغلت الاسعار وكان اغلب الضحايا الذين يموتون من النساء والاطفال وهرب العدد الكثير من اهالي المدينة الى القرى المجاورة . ويذكر العمري في غرائب الاثر ان والي الموصل محمد باشا الجليلي قد ذهب الى سنجار لمحاصرة المتمردين من اليزيدية وخلال عودته الى الموصل علم بوجود المرض فخشي على جيشه فأبقاه خارج المدينة . وقد علق العمري قائلا :"انه رأى رجلا من العساكر بعيدا عن الناس خوفا من القرف ولما نفعه الخوف" .

والى جانب هذه الاوبئة فقد شهدت الموصل عام ١٨٢١م اتشار مرض الكوليرا (الهيضة) واول ظهور له كان في البصرة . واخذت الكوليرا تفتك بارواح الناس وقد اطلق الناس عليه داء (الزوعة) او الهواء الاصفر.

اما عام ١٨٧٨م الذي عانت الموصل فيه من الغلاء الشديد فقد عرف عند اهالي الموصل باسم (غلاء الليرة) وقد سقطت امطار غزيرة في هذا العام ، وكان الموسم الزراعي يبشر بالخير الوافر والرخص . ولكن قبل موسم الحصاد ، هبت رياح سموم لافحة أحرقت الزروع فضلا عن موجات البرد القارص حتى جمد نهر دجلة ، وتعذر جلب الحنطة من بغداد وديار بكر ، فازداد الضيق بالناس ، حتى اضطر بعضهم الى اكل لحوم الحيوانات النافقة ، ومات خلق كثير جوعا ووجعا لأكلهم الجيف( ) .

وفي عام ١٨٩٦-١٩٠٠م غزا الجراد الموصل فاتلف زروع قريتين في اطراف الموصل الشمالية باستثناء قرية جكان (حاليا غمرت هذه القرية بمياه سد الموصل) . وبسبب ذلك ، تأخر المزارعون في هذه القرية عن زراعة محصول القطن وكان مقدار المزروع منه عشرة وزنات من حب قطن وبسبب غزو الجراد ، تأخر زراعة القطن في الموصل على نحو عام .

اما في عام ١٩٠٦م فقد تفشى مرض (ابو هدلان) في قرى الموصل الذي اخذ يصيب الماشية ولا سيما الابقار ، وحال اصابة الابقار بهذا المرض ، يضطر المربون الى ذبحها مما يؤدي الى ارتفاع اسعار اللحوم وغلائها ، وبالتالي يؤثر في المستوى المعاشي لأهالي الموصل.

ولم يقتصر الامر على تفشي المجاعة والامراض، فقد اسهمت السلطات العثمانية الى حد كبير في خلق الازمات المعاشية والاقتصادية في صفوف الاهالي وعملت على مصادرة الحبوب منهم من خلال المضايقات وعمليات الاستحواذ عليها لسد النقص في قطاعات الجيش في سنوات الازمات والحروب من أعيان المدينة ووجهائها بسبعة تفارات حنطة.

وفي عام ١٣٣٠ رومية/١٩١٥م غزا الجراد ثانية الموصل فأكل الحنطة والسمسم.

وبلغ أمر المجاعة درجات الموت المحقق لاغلب اهالي الموصل ، مما دفع بعضهم الى اكل لحوم الكلاب والقطط فضلا عن تجميع دماء الذبائح لغرض تجميدها وتناولها طعاما ، حتى وصل الحال بأحد شهود العيان لوصف حالة المجاعة بقوله :"شاهدت بأم عيني مرة في الطرق هرا يهرب راكضا من دار الى دار أمام المعقبين له حتى قبضوا عليه" .

وسرى الجوع حتى على الحيوانات فمات الآلاف منها على حساب بني البشر وكثيرا ما كان الرجال والنسوة الفقراء يتسابقون الى جمع جثث الحيوانات النافقة ، بعد ان يطردوا عنها الكلاب الجائعة ليقطوا لحومها ويعبئوها في اكياس ويعودوا الى بيوتهم بكل بهجة وسرور ليطبخوا فيسدوا رمقهم تخلصا من الجوع.

ووصف روفائيل بطي وهو شاهد عيان بقوله

: "رأيت بأم عيني جماعة من المهاجرين الذين رحلوا الى الموصل ... يتكالبون على تقطيع اشلاء بغل نافق جروه من الشارع".

كان وراء تفشي المجاعة في الموصل اسبابٌ عدة منها ، رداءة الموسم الزراعي لعام ١٩١٧ مع تضافر موجات الثلوج ترافقت مع البرد الشديد والتي بدورها أدت الى موت اعداد كبيرة من الماشية واتلاف معظم المنتجات الزراعية، صاحبها التزايد الكبير في احتياجات القوات العثمانية من المواد الغذائية ولا سيما بعد انسحابها جنوب العراق وبغداد وفقدانها للكثير من المؤن مما دعاها الى مصادرتها من الاهالي ، ومما زاد الامر سوءا توافد المهاجرين باعداد كبيرة من شرق تركيا بصورة خاصة وكان معظمهم من الاكراد اثر تزايد المذابح الاهلية خلال سنوات الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٥ اذ دخلت اعداد كبيرة منهم شمال العراق ولا سيما الموصل . وكان من النتائج الخطيرة للمجاعة وفاة عشرات الالوف من السكان والقوات العثمانية ، وتفشى امراض الكوليرا والطاعون والتيفوئيد .

وقد أثرت المجاعة تأثيرا خطيرا في اهالي الموصل ، اذ عمد بعضهم الى سرقة اطفال الآخرين والقيام بذبحهم واقترنت تلك الجريمة باسم المجرم المدعو عبود بن علي جاويش بن توفيق بالتعاون من زوجته المدعوة عمشة بواسطة ولدهما بقصد اللعب معهم ومن ثم استدراجهم وقلي لحومهم وتم الكشف عن جريمتهما عندما كانا يقومان ببيع طعام مكون من اللحم ما يعرف لدى اهل الموصل بـ (القلية) ، مما اثار دهشة الناس لوجود اللحم في سنة المجاعة ، فاخبروا السلطات المختصة وبعد التحري اتضح ان المجرم يقوم بذبح الاطفال وقلي لحومهم وبيعها للناس ، وكانت هذه من افظع الجرائم التي حصلت في مدينة الموصل جراء تلك المجاعة. وقد الحقت هذه المجاعة اذى اقتصاديا كبيرا باهالي الموصل حتى انهم اسموها بسنة (الليرة)، وذلك لفقدان الثقة بالليرة الذهبية التي لا تستطيع ان توفر لقمة العيش ، لا بل وصل الامر الى حد الاستغاثة والصراخ في الطرقات والازقة بقولهم (خاطر الله جوعان) ، فهذه العبارة تُسمع يوميا في مدينة الموصل في سنة المجاعة وارتفعت اسعار الحبوب ارتفاعاً فاحشاً حتى بلغ سعر وزنة الحنطة ان التي تساوي (١٣,٥) كيلو ثلاث ليرات ذهبية وهذا يعني ان اغلب اهالي الموصل كانوا في مواجهة المرض والموت.

وقد اسهمت في تفشي المجاعة عوامل عديدة منها :

١. قانون المبيعات العثمانية :

وكان يجري تطبيق هذا القانون في الارياف اذ يؤخذ من المزارعين مقدار (١٠/١ العشر) من الناتج الكلي لغرض تمويل قطعات الجيش العثماني ، اذ كانت رسوم العشور تطبق بطريقة المزايدة العلنية ، للراغبين القيام بتنفيذ هذه المهمة ، كانت تهيء التموينات الغذائية لصالح السلطات العثمانية وقد شهد موسم الانتاج الزراعي لعام ١٩١٧ انحسارا او نقصا في واردات الانتاج من الحبوب ، بسبب هجمات الجراد على المناطق الزراعية وانخفاض التموينات المعدة لتموين الجيش العثماني عام ١٩١٨ ، ولذلك اصدرت السلطات العثمانية قانون المبيعات والذي نص على استحصال (١٠/١ عشر) اضافي من واردات الزروع الى جانب استحصال العشر الرسمي المنصوص عليه في القانون مما الحق خسائر فادحة بالمزارعين ، وادى الى هجر مزروعاتهم ، والاقتصار على ما يسد حاجاتهم من المواد الغذائية المخزونة في بيوتاتهم ، ومن هنا ظهرت بوادر المجاعة في مدينة الموصل.

٢. ضرائب التكاليف الحربية :

وكانت هذه الضرائب تستحصل على نوعين اما ان تؤخذ من اهالي الموصل عينية او نقدية ، وتختلف مقاديرها باختلاف البضائع والعقارات وانواع الحرف والمهن، وظهر الاحتكار جليا في تجارة المدينة ، وخصوصا ما بين المضاربين والمستغلين من المحتكرين بالتواطؤ مع المسؤولين الاداريين العثمانيين ، مما ادى الى تركيز الثروة في أيدي هؤلاء على حساب الغالبية من اهالي الموصل ، وفقدان السيولة النقدية وضعف القدرة الشرائية لدى معظمهم.

٣. توافد الهجرات على الموصل :

هاجر الى ولاية الموصل اعداد كبيرة من الارمن والاكراد من بلاد الاناضول ابان سنوات الحرب العالمية الاولى، وتزامنت هجرتهم مع انتشار المجاعة في المناطق الواقعة في شمالي مدينة الموصل ، اذ قدر عدد المهاجرين الارمن ممن دخلوا قصبة الموصل ما يقارب ثمانية آلاف نسمة ، وكانوا يعانون من الجوع وشظف العيش ، وقدموا مدينة الموصل بحثا عن لقمة العيش ، اذ كان الجوع يطاردهم اينما حلوا ناهيك عن هجرة اعداد كبيرة من الاكراد وتوافدهم الى الموصل حيث بلغ عددهم تقريبا (٧٠,٠٠٠) شخصا ابان سنوات الحرب العالمية الاولى .

وقد وصف احد شهود عيان الصورة المأساوية للمجاعة آنذاك ، بقوله : "كنت اثناء مكوثي في الموصل أطوف في شوارع المدينة وازقتها ، اشاهد فقراءها المهاجرين منتشرين في الطرق والاسواق ، والبعض منهم يتخفون تحت دكاكين البقالين والخبازين يتصيدون المشترين فما ان يشتري شخص لوازمه من الدكان سواءً خبزا او سمنا او غير ذلك ويدفع ثمنها الى البائع حتى يخرجوا من تحت الدكاكين ويهاجمونه ويسلبوه كل ما اشتراه ، وكان بعض هؤلاء الجياع ... يتعاركون فيما بينهم ويغتصب كل واحد منهم اللقمة من فم رفيقه ويدخلها الى فمه بطريقة لم أر مثلها طوال حياتي ... وكنت اشاهد مأموري البلدية ومعهم الحمالين ... يجمعون جثث الميتين جوعا في كل صباح ومساء كأنما يجمعون الحطب والنفايات".

ومن آثار المجاعة التي حلت في مدينة الموصل ، انتشار ظواهر النهب والسطوعلى اموال الاهالي وممتلكاتهم وخصوصا عند شيوع الاخبار بان بعض التجار احتكروا المواد الغذائية ولذلك تشكلت عصابات منظمة للسطو على مخازن المواد الغذائية او على بيوت التجار لغرض الحصول على الغذاء ، ففقد الامن في المدينة ولذلك عمد اصحاب الاموال والمواد الغذائية على حراسة ممتلكاتهم سواء الموجودة منها في بيوتهم او في دكاكينهم للتصدي لتلك العصابات التي تريد السيطرة ونهب المواد الغذائية .

وانعكس الوضع الامني المضطرب على تمرد اهالي القرى الخارجة عن النطاق الجغرافي لمدينة الموصل عن طريق عدم دفع الضرائب للعثمانيين جراء تلك المجاعة، فقد امتنع اليزيديون القاطنون في منطقة سنجار عن دفع الضرائب والعشور منذ عام ١٩١٧ ، فحصلت مواجهات مع العثمانيين للقضاء على تمردهم في عام ١٩١٨. وفضلا عن ذلك برزت ظاهرة نهب المسافرين وتسليبهم ، وخصوصا بعد لجوء الارمن الى مناطق اليزيدية ، وقد حددت هذه الحالة عن طريق برقية بعث بها الناظر طلعت باشا الى مركز ولاية الموصل في شهر كانون الثاني عام ١٩١٧ ، والتي تضمنت "اعلمتنا متصرفية دير الزور ان الارمن الموجودون داخل اللواء والذين فروا سواء اثناء عمليات السوق بطريقة اخرى ، قد اجتازوا (ولاية الموصل) عن طريق البادية والتجأوا الى اليزيدية الذين قدموا الحماية لهم ، وبدأوا بالتجاوز على المسافرين، ابلغونا عن عدد اليزيدية هناك وهل انهم اتحدوا مع الارمن لاتخاذ التدابير اللازمة لمنع تجاوزهم".

وفي استعراض لمدى ارتفاع الاسعار والغلاء الذي ساد مدينة الموصل في فترة المجاعة يمكن الاشارة الى ان اسعار المادة الاساسية للعيش المتمثلة بالخبز ارتفعت اثمانها الى ثلاثة اضعاف ، اذ ان الحنطة بلغت من الندرة والشحة بحيث اصبح بيعها حسب الاوزان التي يعتمدها العطارون في بيع موادهم ، وارتفع ثمن رغيف الخبز الواحد الى اكثر من قرش واحد . وفي هذا الصدد ، وفي سنة ١٩١٨ ، ارتفعت اسعار المواد التموينية والغذائية بنسب عالية جدا بحيث اصبح سعر (وزنة الحنطة) مرتفعا بنسبة (٢٦٠٪) ، كما ارتفع ثمن وزنة الرز بنسبة (٢٥٠٪) ، والشعير بنسبة (١٦٠٪) ، وفي ذات الوقت ارتفعت اسعار السكر والشاي الى ثلاثة اضعاف.

وبلغ سعر وزنة الحنطة الموصلية الى (٢٠ مجيدي) ، وبلغ سعر الطن الواحد من الحنطة قبيل انسحاب القوات العثمانية من الموصل قرابة (٤٠٠ ليرة ذهبية) ، وتجدر الاشارة الى ان التجارة بالحنطة كانت تتسم بالسرية وذلك للخشية من معرفة الجهات العثمانية التي غالبا ما كانت تصادرها. وفضلا عن ذلك ، فان نقل البضائع التجارية من داخل الموصل الى خارجها ، او جلب البضائع من خارج الموصل الى داخلها ، وقد تعرضت الى قطاع الطرق وهذا يوضح مدى الفوضى التي حصلت ابان الحكم العثماني في عدم القدرة على توفير اسباب الحماية للتجارة ، ومنها تجارة الملح ، التي يتعرض تجارها الى رسوم تستحصل بشكل غير رسمي من قبل عشيرة شمر ، اذ كانوا يستوفون رسم مرور مقداره الف وخمسمائة قرش مقابل كل قافلة تحمل الملح تحت مسمى (الخوة) ، التي تعني استخدام القوة في الحصول على رسوم تجارية غير قانونية من قبل بعض العشائر العراقية.

ومن شواهد المعاناة التي كابدها أهل الموصل في فترة المجاعة ما بين عامي ١٩١٧ - ١٩١٨ حين لجأ مسؤولي الادارة العثمانية الى اسلوب التعسف في تحصيل الضرائب فغالبا ما كانوا يسيطرون على المؤن الغذائية في حالة عدم دفع ضرائبها ، لا بل وصل الامر الى اقتحامهم البيوت واخذ الغلال والاموال ان وجدت. اضافة الى ان العثمانيين وفي شهر تشرين الاول عام ١٩١٤ فرضوا ضريبة المجهود الحربي ، التي بلغت نسبتها (٥٠٪) على الاملاك العقارية و(٢٥٪) على الاراضي والعشور ، الى جانب فرض على كل فرد ان يدفع جزءاً مما يملكه من المواشي والحبوب الى المسؤولين العثمانيين ، كما فرضوا على اثرياء الموصل رسوم وضرائب نقدية ، وفي حالة امتناع اهالي الموصل عن دفع تلك الضرائب فانهم كانوا يتعرضون للاهانة، واحيانا للضرب ، ناهيك عما كان يفعله جباة الضرائب الذين يختلسون الاموال المستحصلة من الاهالي ، وهذا ما اثار استياء معظم اهالي الموصل الذي عبر عنه الغلامي ، الذي كان شاهد عيان ، قائلا : "ما كنا نمر في طريق او نستقر في مكان الا ونسمع انواع الكلام المنبعث عن التذمر من تلك الحالة السيئة وشدة الرغبة في جلاء الترك عن البلد والتشوق الى دخول الانكليز فيه رجاء انقاذهم مما هم عليه وتخليصهم مما صاروا اليه ...". ان هذه الصورة التي طرحها الغلامي تظهر مدى الصعوبات التي واجهها الاهالي جراء السياسة التعسفية للولاة العثمانيين الا ان رغبتهم السريعة بدخول المستعمرين الجدد من الانكليز حالت دون اعطاء صورة ايجابية بان عهد المستعمر البريطاني سيكون افضل من العهد العثماني ، اذ اتخذ البريطانيون اجراءات اقتصادية سريعة على المستوى التجاري ساعدت على استمرار حالة العوز المادي لدى اهالي الموصل ، فقد طبق البريطانيون شروطا قاسية على حركة البضائع والسلع التي يقصد تجارها مدينة الموصل والوافدة من مناطق عدة ، ذلك عن طريق فرض رسوم عن كل بضاعة تدخل مدينة الموصل، وفي حالة شحن البضائع والسلع من مدينة الموصل والعاصمة بغداد كان على التاجر ان يظهر الوثائق في دائرة الرسوم وهذا يعني دفع رسوم اضافية على البضائع ، مما يؤدي الى ارتفاع اسعار المواد الغذائية.

وفي اثر سياسة المستعمرين البريطانيين الاقتصادية ، ارتفعت اسعار المواد الغذائية والمستلزمات المنزلية الى اضعاف عدة اذ ارتفعت اسعار الاقمشة منذ عام ١٩١٦ الى ثلاثة اضعاف قياسا لسنة ١٩١٣ ، كما ارتفعت اسعار الشموع بنسبة اربعة وخمسة اضعاف ، كما شمل الارتفاع المواد التموينية والغذائية بخاصة اذ ارتفع سعر الخبز الى ثلاثة اضعاف قياسا بفترة ما قبل الحرب.

ولم يقتصر الامر على اوضاع الموصل في عهد الاحتلال البريطاني على ذلك ، اذ عانى الموصليون من سوء معاملة قوات الاحتلال ، فقد كان الجندي البريطاني يسير بالطرقات الموصلية ولا يتردد لشتم او ضرب أي احد من اهالي الموصل حتى وان كان من أعيان المدينة ، ولم يقتصر الامر على ذلك اذ بدأ جنود الاحتلال البريطاني مصادرة ما يرغبون به من الدكاكين باسلوب ما يسمونه (المهبة – بخشيش) ، كما انهم لم يترددوا بالتحرش بالنساء الموصليات ومحاولة الاعتداء عليهن.

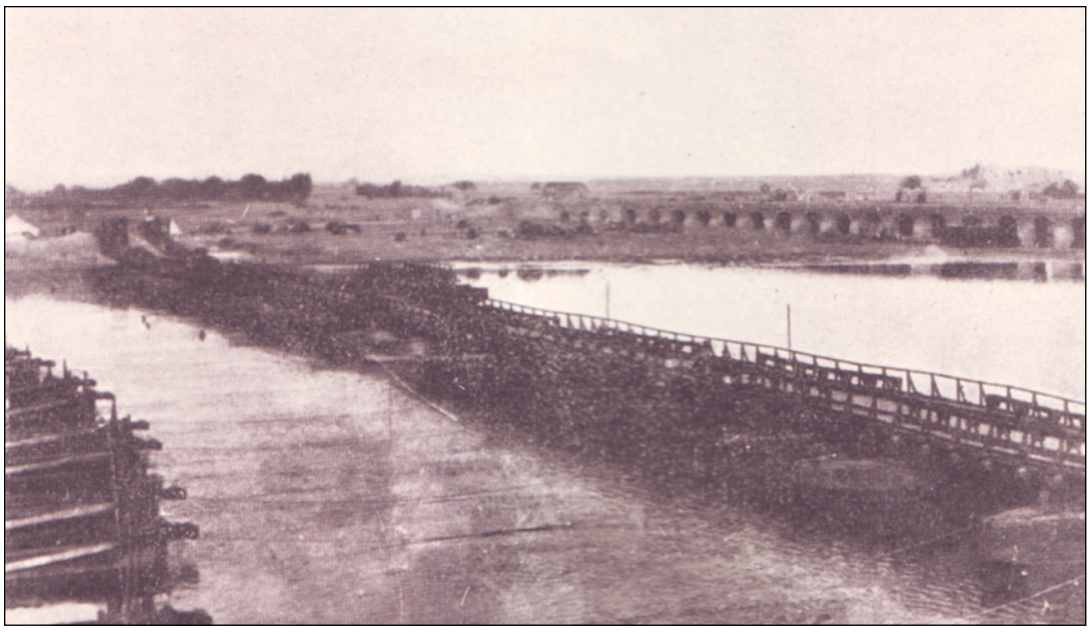

عن كتاب صفحات من تاريخ الموصل
سعيد الديوجي

قصة تنظيم الضباط الأحرار في العراق

عند دراسة حركة الضباط الأحرار داخل الجيش العراقي لا يمكن فصلها عن الواقع السياسي العراقي ، وتأثرها بالمشاكل والأوضاع السيئة التي كان يعانيها الشعب العراقي لان أفراد الجيش هم من أبناء هذا الشعب ومن طبقاته المختلفة، لذا فانهم يحسون بهذه المشاكل والأوضاع المتردية بكل تفاصيلها ، من هنا شعر الضباط في الجيش بمسؤوليتهم تجاه وطنهم وشعبهم وضرورة تنظيم أنفسهم للعمل على التخلص من الزمرة الحاكمة التي طالما أرهقت كاهل الشعب بمتطلباتها ورفاهيتها على حساب آلامه واحزانه .

د. هادي حسن عليوي

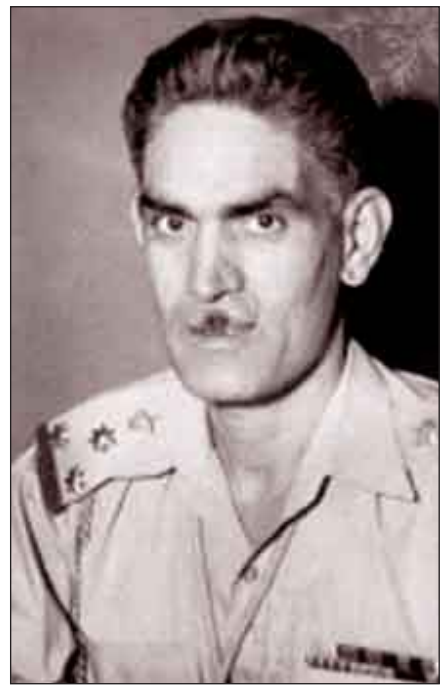

عبد الكريم قاسم

وصفي طاهر

نجيب الربيعي

المهداوي

وقد بدأت عوامل عديدة تؤدي دورها في جر الجيش إلى معترك الحياة السياسية منها الحرب العراقية – البريطانية عام ١٩٤١ وإعدام ضباط حركة مايس عام ١٩٤١ ، كما أن هزيمة العرب في حرب ١٩٤٨ مع الصهاينة في فلسطين اسهمت في تصعيد المد الوطني والقومي بين صفوف الضباط في الجيش العراقي ، ثم جاءت ثورة (٢٣ تموز ١٩٥٢) في مصر بقيادة تنظيم الضباط الأحرار المصري لتكون الحافز الكبير الذي اسهم في رفع الخوف والتردد من نفوس الضباط العراقيين ثم كانت انتفاضة تشرين الثاني ١٩٥٢ التي أكدت ضرورة إيجاد الحكم الصالح الذي يحقق مطالب الشعب العراقي بالحرية والحياة الحرة الكريمة والتخلص من نظام عبد الإله ونوري السعيد الممثل للمصالح الاستعمارية الأجنبية .

لقد ادت عوامل ودوافع عديدة دورها في جعل بعض الضباط يفكرون في تأسيس تنظيم عسكري لإسقاط النظام الملكي وأهمها :-

١.طموح هؤلاء الضباط إلى الإصلاح والنهوض بالبلاد وتخليصها من أوضاعها المتردية وتحقيق إصلاح سياسي واقتصادي واجتماعي وللوصول إلى هذه الأفكار يجب الوصول إلى الحكم ولا يكون ذلك إلا بالثورة المسلحة ، كما أن استخدام السلطات الحاكمة للجيش قوة مساندة للشرطة لقمع الانتفاضات الوطنية أدى إلى سخط أفراد الجيش ، ويقينهم أن الأحزاب والعمال والفلاحين والطلاب لا يستطيعون التخلص من هذا الحكم بالطرق السلمية ، إلا أن انتفاضات العمال والفلاحين والطلاب هي التي مهدت الطريق لعمل الضباط الأحرار وسهلت عمل الجيش للثورة في ١٤ تموز ١٩٥٨ وهذا واضح في البيان الأول للثورة.

٢.موقف الحكومة العراقية من حرب فلسطين والتوقف المستغرب لعمليات القوات العراقية في فترة حرجة من فترات الحرب اثر بشكل كبير في معنويات الضباط العراقيين ، وكشف لهم تآمر العائلة الهاشمية ضد القضية العربية.

٣.تشبع اكثر الضباط العراقيين بالروح القومية ورغبتهم في تحقيق الوحدة العربية وسخطهم من موقف الحكومة العراقية من العدوان الثلاثي على مصر في أزمة السويس ١٩٥٦ ، حيث رأوا فيه مساسا لكرامتهم ، كما أن معارضة الضباط لحلف بغداد ١٩٥٥ الذي حول العراق كله إلى قاعدة جوية بريطانية ، وكبل العراق بالقيود الاستعمارية يمكن أن تضاف دافعا قوياً لقيام الضباط بثورتهم، لان هذا الحلف أقام ارتباطا وثيقا للعراق بسياسات الغرب عازلا إياه بشكل متعمد عن بقية العالم العربي ، ثم جاء الاتحاد مع الأردن في عام ١٩٥٨ ، الرد الهاشمي على تأسيس الجمهورية العربية المتحدة بين سوريا ومصر فلم يزد ذلك إلا من حدة الاستياء بسبب الأعباء المالية المترتبة على العراق لدعم الجيش الأردني لا لشئ إلا لمصلحة الأسرة الحاكمة.

هذه العوامل وغيرها من عوامل وأسباب كثيرة أسهمت في دفع الضباط إلى تنظيم أنفسهم وبناء قاعدة تنظيمية لعملهم لذا بدأت تظهر اجتماعات بين الضباط ثنائية وثلاثية وغيرها مما شكل خلايا تنظيمية داخل الجيش تعقد اجتماعات منتظمة لدراسة إمكانية القيام بالثورة ، أن جماعة رفعت الحاج سري أثبتت وجودها في أيلول ١٩٥٢ ، وكانت اكثر الجماعات تنظيما وسعة في اتصالاتها مع الضباط الشباب في الجيش، وكان هدف هذه الخلايا هو قلب نظام الحكم الملكي في العراق وإصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد.

وكانت هذه الخلية تعمل على التشديد في اختيار الضباط للعمل حيث يتم ترشيح عدد من الضباط من مختلف الرتب والصنوف ممن تتوفر فيهم الكفاءة والإخلاص وتتم مفاتحتهم بحذر شديد ، وكان نظام العمل على أساس الخلايا ولم تكن للتنظيم هيأة أو خلية عليا تسيطر على إدارته وكان هدف التنظيم ضم اكبر عدد من الضباط إليه ولاسيما قادة الفرق والوحدات الفعالة الضاربة ، ولم توضع قواعد عامة لانتماء الضباط وان كانت هناك أهداف وطنية عامة يشترك فيها الضباط .

في حزيران ١٩٥٦ بدأ الضباط يجمعون صفوفهم ويعدون العدة لنشاطهم الثوري ، وانتظم بعضهم في وحدات صغيرة وكانت كل جماعة تلتف حول أحد الضباط الشباب ، واهم هذه الوحدات كانت الوحدة التي أصبحت فيما بعد نواة المنظمة المركزية التي كانت تعرف بمنظمة بغداد بقيادة محيي الدين عبد الحميد والتي كان رجب عبد المجيد يدير اجتماعاتها وينظم نشاطها فضلا عن توليه أمانة سرها ، وتأسست منظمة أخرى بقيادة عبد الكريم قاسم في المنصور (إحدى ضواحي بغداد) ، والتي اندمجت مع منظمة بغداد ، وانتشرت الخلايا والتنظيمات في أنحاء مختلفة من العراق.

وفي كانون الأول ١٩٥٦ عقد اجتماع مهم في دار الرائد الطيار المتقاعد محمد سبع البياتي في الاعظمية ، تقرر فيه تشكيل لجنه عليا للتنظيم تضم (رجب عبد المجيد ، ناجي طالب ، محسن حسين الحبيب ، محيي الدين عبد الحميد ، صبيح غالب ، وصفي طاهر ، عبد الكريم فرحان ، ومحمد سبع) ، وانضم لهم عبد الوهاب أمين ثم انضم إلى اللجنة طاهر يحيى وعبد الرحمن عارف، وفي نيسان ١٩٥٧ اتفق الضباط على ضم عبد الكريم قاسم وبعد أسبوعين جاء مع عبد الكريم قاسم ، عبد السلام عارف إلى اجتماع اللجنة ورشحه للعضوية ، مما دفع اللجنة إلى قبول عضويته مرغمة حفاظا على سرية العمل ، وكان آخر من انضم عبد الوهاب الشواف في أواسط آيار ١٩٥٨ واصبح عدد أعضاء اللجنة خمسة عشر (بضمنهم رفعت الحاج سري) ، وأدى أعضاء اللجنة يمين الولاء والإخلاص للتنظيم والوطن وسرية العمل، وكان محيي الدين عبد الحميد يرأس الاجتماعات لانه أعلى رتبه من الباقين (عميد) ، ولكن بعد انضمام عبد الكريم قاسم صار هو الذي يرأس الاجتماعات كما ترأس اللجنة العليا لانه الوحيد من بين أعضائها الذي يحمل رتبة زعيم (أعلى رتبة للضباط القادة).

جـ :- الاتصال بين الضباط الأحرار وجبهة الاتحاد الوطني

كان الضباط الأحرار يختلفون عن أقرانهم من المدنيين في الانتماء إلى عقائد سياسية معينة (أحزاب) ، بل كانوا مختلفين في آرائهم السياسية فيما بينهم ، وبعضهم أمثال عبد الكريم قاسم ومحيي الدين عبد الحميد كانا قد تأثرا بالأفكار السياسية الليبرالية ، كما كانا يدعوان إلى انتهاج سياسة وطنية معتدلة ، وقد أشار البعض

في حزيران 1956 بدأ الضباط يجمعون صفوفهم ويعدون العدة لنشاطهم الثوري ، وانتظم بعضهم في وحدات صغيرة وكانت كل جماعة تلتف حول أحد الضباط الشباب ، واهم هذه الوحدات كانت الوحدة التي أصبحت فيما بعد نواة المنظمة المركزية التي كانت تعرف بمنظمة بغداد بقيادة محيي الدين عبد الحميد والتي كان رجب عبد المجيد يدير اجتماعاتها وينظم نشاطها فضلا عن توليه أمانة سرها

إلى أن عبد الكريم قاسم كان من المتأثرين بأفكار(جماعة الأهالي)، وبمواقف (الحزب الوطني الديمقراطي) وارائه في المرحلة الأخيرة من العهد الملكي.

أما الآخرون أمثال عبد السلام عارف ورفعت الحاج سري فكانوا يتمسكون بفكرة الوحدة العربية الشاملة ، كما أنهم كانوا يدعون إلى الانضمام إلى الأقطار العربية ولا سيما الجمهورية العربية المتحدة ، أما النظم السياسية الداخلية فأنها لم تستأثر باهتمامهم كثيراً ، كما كان هناك ضباط أمثال وصفي طاهر و إسماعيل علي يتعاطفون مع الحزب الشيوعي، لذا فأن هؤلاء القادة العسكريين عندما شكلوا خلاياهم السرية بدأوا بأقامة اتصالات مع الزعماء السياسيين الذين يتعاطفون معهم في أفكارهم .

فمثلاً جرى اتصال مع صديق شنشل الأمين العام لحزب الاستقلال حيث اتصل به رفعت الحاج سري في أوائل ١٩٥٣ ، لكن لعدم ثقة صديق شنشل بإمكانيات رفعت الحاج سري القيادية فأنه لم يوافق على المشاركة معه في حالة قيام الجيش بثورة ، ثم اتصل رفعت الحاج سري بفائق السامرائي (نائب رئيس حزب الاستقلال) الذي قبل أن يكون مستشاراً له ، وكان صلة الوصل بين العسكريين والمدنيين لمنع الاشتباه هو رجب عبد المجيد واستمر بعمله هذا حتى بعد حل خلية رفعت الحاج سري ، وكان محمد مهدي كبة زعيم حزب الاستقلال قد أجرى اتصالات مع بعض الضباط الأحرار بوساطة شمس الدين علي (وهو ضابط صغير وعضو في خلية يتزعمها عبد الوهاب أمين).

وأقام عبد الكريم قاسم اتصالاً سرياً مع قادة " الحزب الوطني الديمقراطي " عن طريق صديقه رشيد مطلك، وقد جرى أول اتصال بين سكرتير عام الحزب حسين جميل مع رشيد مطلك في عام ١٩٥٦ عارضاً عليه رغبة عبد الكريم قاسم في التعاون مع تنظيم جديد داخل الجيش هو (تنظيم الضباط الأحرار) ، ويذكر حسين جميل بأنه أوضح (للرسول) بأن الانقلاب قد يذهب بأوضاع تشكو منها البلاد ولكنه يأتي بأوضاع هي ضد الحريات والحكم الديمقراطي ، أي انه يأتي بحكم عسكري من الصعب جداً على القوى الوطنية أن تجد مجالات العمل السياسي في ظله وتصحيحه ، ولجماعة الأهالي تجربة مرة في هذا الشان ، وقد أيد كامل الجادرجي موقف حسين جميل لكنه طلب منه عدم قطع الاتصال مع الضباط الأحرار.

وطلب إلى حسين جميل إبلاغ كامل الجادرجي رغبة الضباط الأحرار بمشاركته في الحكم بعد نجاح الثورة ، إلا أنه رفض التعاون معهم واكتفى بتأييدهم فقط، ويذكر د . مجيد خدوري أن عبد الكريم قاسم كان يفضل وبموافقة الجادرجي أن يكون محمد حديد نائب رئيس الحزب ، مستشارهم ، لكي يبعد عن زعيم الحزب مهمة ربط الحزب بحركة عسكرية ، وبقي محمد حديد مدة سنتين على اتصال مستمر مع عبد الكريم قاسم ، كما كان يطلع كامل الجادرجي (الذي كان في السجن مدة سنة قبل الثورة) على اتصال بنشاطات حركة الضباط الأحرار.

هذه الاتصالات المستمرة بين المدنيين والعسكريين الأحرار اسهمت في تقوية التقارب بين المدنيين والعسكريين وتوحيد أهدافهم في اتجاه الثورة ، حيث أن الزعماء الوطنيين يعدون الجيش هو الجناح العسكري للتنظيمات المدنية ، كما أن الجيش يعد الأحزاب القاعدة الجماهيرية الشعبية له والتي تسنده عند قيام الثورة وتنفيذها.

ويذكر د . فاضل حسين أن رشيد مطلك زار في صيف عام ١٩٥٦ عامر عبد الله عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي السري مرسلاً من عبد الكريم قاسم ، واوضح له نية عبد الكريم قاسم والضباط الأحرار في الإطاحة بنظام الحكم عن طريق حركة عسكرية وطلب رأي الحزب الشيوعي في مبادئ الخطة ودور الحزب لدعم الثورة ، وقد قام عامر عبد الله باطلاع سلام عادل سكرتير الحزب الشيوعي على الرسالة التي أرسلها إلى عبد الكريم قاسم (التي تتضمن بعض الأفكار والشروط الأساسية لتأمين نجاح الثورة وغيرها من الأمور) ، بأسمه فأقرها ، وذكر سلام عادل أنه يسعى من جانبه إلى إقامة صلة بجبهة عسكرية ، وفي لقاء ثان ذكر رشيد مطلك أن عبد الكريم قاسم يطلب أن يبادر الحزب الشيوعي إلى تعبئة الجماهير في تظاهرات إسناد واسعة حالما تبدأ الثورة ، وطلب عبد الكريم قاسم من الحزب أن يتولى وضع التدابير الخاصة بالشؤون الاقتصادية بعدها خارجة عن اختصاص العسكريين ، كما طلب عبد الكريم قاسم من الحزب الشيوعي أن يسعى إلى تأمين الدعم من الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية للثورة في العراق.

ومن خلال تعاون جبهة الاتحاد الوطني مع تنظيم الضباط الأحرار تمكن هؤلاء الضباط من الاتصال بجهات مختلفة في سبيل الحصول على الدعم منها عند قيام الثورة مثلما تم اتصال مع جمال عبد الناصر ، عن طريق تكليف حسين جميل بهذه المهمة من عبد الكريم قاسم في منتصف تموز ١٩٥٦ عند حضور حسين جميل اجتماع مؤتمر الخريجين العرب ، حيث طلب من الأخير مقابلة جمال عبد الناصر واطلاعه على كيفية إسقاط تنظيم الضباط الأحرار بزعامة عبد الكريم قاسم للنظام الملكي وفي حالة نجاح الثورة هل هناك احتمال أي تدخل أجنبي ضد الثورة وما هو موقفه منها ؟ وكان رد جمال عبد الناصر إنه عند قيام الثورة سوف لا يحدث أي تدخل أجنبي لان الدول الغربية لديها مصالح أهم تحافظ عليها من بقاء نظام أو انهياره وهي النفط واستخدام القواعد العسكرية والموانيء لذلك فأن هذه الدول سوف تهادن النظام الجديد وتعمل على احتوائه.

لذا فأن الضباط الأحرار حاولوا من خلال اتصالاتهم بالزعماء المدنيين ولاسيما من حزبي (الوطني الديمقراطي والاستقلال) الاستفادة منهم لمعرفة موقف الجمهورية العربية المتحدة من الثورة، ومقدار المعونة والدعم اللذين ممكن أن تقدمهما للثورة عند قيامها ، كما حاولوا الاستفادة من خبرة رجال الجبهة السياسية والاقتصادية والقانونية واستشارتهم في كثير من الأمور التي يمكن أن تنشأ بعد قيام الثورة ، فقد تمت استشارة محمد حديد في عدة مسائل تتعلق بالقضايا المالية وكيفية معالجة المشاكل التي يمكن أن تثيرها الدول الغربية واستشارته حول الخطة المالية للحكومة بعد الثورة بما يضمن سلامة الوضع الاقتصادي وكذلك فيما يتعلق بقضية النفط.

مما تقدم تظهر لنا حاجة التنظيم العسكري إلى دعم مدني من الأحزاب السياسية والتيارات الوطنية عند قيام الثورة لأنه لا يمكن أن يتولى القادة العسكريون جميع المناصب الوزارية في الحكومة الجديدة لأن الوزارات تحتاج إلى خبرة وكفاءة في إدارة أمورها ، ولاسيما بعد حدوث تغيير جذري في نظام الحكم من ملكي إلى جمهوري ثوري يسعى إلى التغيير السريع في الميادين كافة.

لذا لا يمكن النظر إلى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ على انها حدث مفاجئ في حياة وتاريخ العراق الحديث لأنها تمثل الذروة في النضال الجماهيري ولان الجيش هو جزء من هذا الشعب ، فقد تأكد لدى الضباط الأحرار انه لا يمكن للعمل الشعبي فقط أن يحقق الخلاص من النظام الملكي بل يجب القيام بمبادرة عسكرية لقلب نظام الحكم .

الزهاوي وحادثة لقائه مع نوري السعيد

الزهاوي

نوري السعيد

نحن نعرف جميل صدقي الزهاوي كشاعر و نعرفه كفيلسوف و كعالم. و لكن قلما يعرفه احد كظريف منكت. له حكايات و طرائف كثيرة شهدها المقهى المعروف بأسمه، مقهى الزهاوي في شارع السراي.

لم يكن هذا المقهى يعرف بهذا الاسم، و انما باسم قهوة امين. دعاه يوما نوري السعيد للالتقاء به. سأله الزهاوي ، وين نلتقي. قال له رئيس الوزراء في قهوة امين. التقيا هناك . رئيس الحكومة و الشاعر الفيلسوف. ليس فيها من متاع الدنيا غير بضعة مصطبات و كراس قديمة و فونوغراف ابو الزمبرك. تصوروا رئيس الحكومة يجتمع في مثل هذه المقهى !!.

مع ذلك ، اعجب الزهاوي بها فاتخذها مقاما له. و سرعان ما تحولت الى وكر للادباء و المفكرين. كان بينهم الرصافي. و كما ذكرت في مناسبة سابقة كان بينهما ما صنع الحداد. و إن كنت لا ادري ماذا صنع الحداد. انطلق الرصافي في انشاد قصيدة طويلة فأخذ الزهاوي يتضايق منها و من صاحبها. جلس يتربص لفكرة يعمل فيها مقلبا عليه. حتى ظهر صبي يبيع الحب. فقاطع الزهاوي زميله الرصافي متوجها الى بياع الحب."يا ولد عندك قميص شبابي على كدي؟"

استغرق الحاضرون بالضحك. و ضاعت القصيدة على الرصافي فخرج غاضبا و لم يعد الى ذلك المقهى ابدا. و عندئذ تربع الزهاوي في جلسته وقد نصب من نفسه اميرا على المقهى !!.

ذهب الرصافي، واذا بمحله يأخذه شاعر نابغ آخر تعرفونه : محمد مهدي الجواهري. انطلق الجواهري يتلو شيئا من شعره هو الآخر حتى قاطعه الفيلسوف. " افندم تتراهن؟" استغرب الشاعر الشاب . كان عمره سبعا و عشرين سنة، من هذا السوآل. أعاد الكرة :" نتراهن على أي شيء استاذ؟" على ان اقطع نفسي و انت تقطع نفسك، و خلي نشوف منو يخلص نفسه بالأول!

كانت لعبة مما يلهو به الاطفال ، و لكن الجواهري الشاب لم يشأ ان يعترض على سيده وهو في السبعين. فمسك نفسه. و فعل مثله الزهاوي. بعد برهة من الوقت استسلم الجواهري. " يا استاذنا كفاية!" فكسب الزهاوي الرهان و حق على الجواهري ان يدفع عنه اجرة المقهى : آنة !!!.

يقول المثل الشائع بيننا : (ديكين على مزبلة واحدة ما يعيشون.) كان الافضل لصاحب المثل ان يقول شاعران في مقهى واحد لا يعيشان.

بيد ان الزهاوي لم يكن بخيلا في الواقع ، او حريصا على الآنة ، اجرة المقهى. بل كان المعتاد له عندما يهم بالانصراف ان ينادي على الخادم و يدفع على الجالسين ممن يحبهم و يستثني من الدفع من لا يحبهم ، او من اغضبوه و عاكسوه في جلسة ذلك اليوم. لا. هذا اخذ حسابك منه! يقول للخادم و يشير بأصابعه الى من اغضبه !!.

هكذا كان مقهى الزهاوي ، واحة من واحات الفكر و الادب ارتبط باسماء مشاهير تلك الحقبة. يوسف عز الدين، عبد الرزاق الهلالي، ماهر حسن فهمي، عبد الحميد الرشودي. انضم اليهم عبد القادر المميز صاحب جريدة (ابو حمد). فاستقبله الزهاوي بهذين البيتين:

قد جاءنا ابوحمد – يمشي كمشية الاسد
قد طابت القهوة لي – صب يا ولد!صب يا ولد!

وهناك كان ينفث افكاره الفلسفية في شتى العلوم،، الداروينية و اصل الانسان، و جاذبية الارض و نحو ذلك. فيما كان يوما محلقا بأفكاره هذه ، اقتحم المقهى رجل يتطاير الغضب من عينيه ، و توجه فورا الى الزهاوي. كلب ! كافر! زنديق! تنكر خلقة الخالق؟ تقول اصل الانسان قرد! آني ابويه قرد؟!

مسك به الزهاوي و قال له : لا، ابني. انا ما قلت ابوك انت كان قرد. حاشا. انا قلت ، ثم كشف الشاعر عن رأسه الاصلع و وجهه المكرمش و اسنانه المنخورة ، و مسك ذقنه بيده و قال:

انا قلت ، آني ابويه كان قرد!

ضج الجالسون بالضحك في ذلك اليوم

مجلة العاملون في النفط 1971

من هي عادلة خاتون؟!

رشيد الصفار

لعل الفضل في بحوثنا هذه يعود الى ما كتبه الاستاذ امين المميز عن بغداد في كتابه المميز والذي احدث ضجة او ضجات تثير كوامن كثير من العارفين من الكتاب والمحيطين بتاريخ بغداد واعيان اشخاصها في مختلف عهودها وادوارها، وكان من هؤلاء الاعيان التي ردد ذكرها المؤلف المميز اكثر من خمسين مرة عداً هي"عادلة خاتون"ابنة والي بغداد احمد باشا بن سحن باشا بن مصطفى باشا الوزير السباهي والسباهية: صنف من الحرس الخيالة الخاص او الممتاز في البلاط العثماني، ولعل الدافع الاساس الذي حمل المميز على تكرار ذكرها والثناء عليها هو رابطة النسب التي توثقت بينهما وذلك ان عبد الرحمن باشا"الى كركوك"هو زوج فاطمة خانم او خاتون بنت حسن باشا والي بغداد حكم من عام 1116 1136- هـ، 1723/1704 المعروف تاريخيا بـ فاتح همدان، وابن الوزير مصطفى باشا السباهي الاموي الاصل المار ذكره.

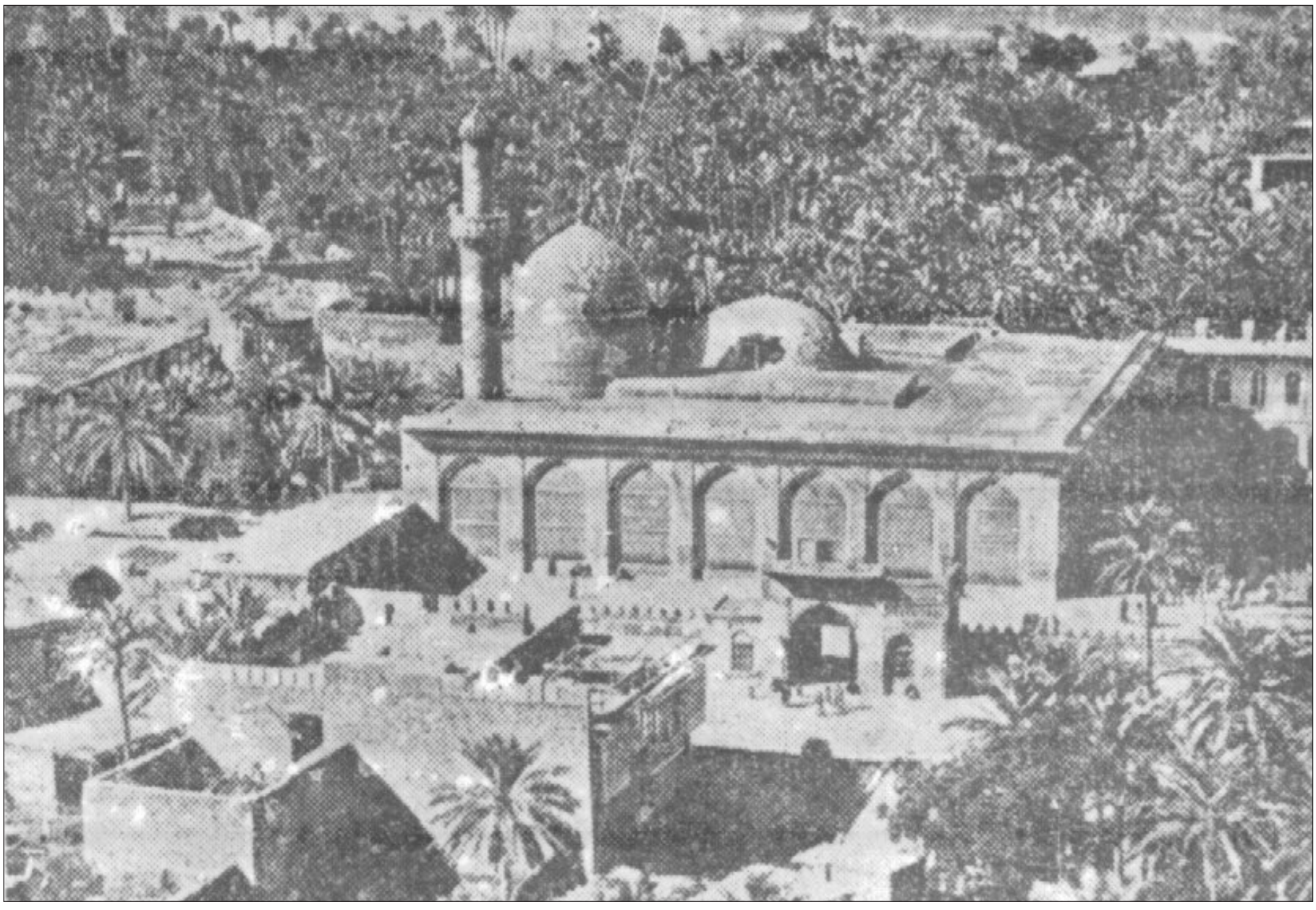

منطقة عادلة خاتون من الجو

وان زوجته فاطمة هي عمة عادلة خاتون صاحبة الجامعين المشهورين الكبير والصغير والمنسوبين بالاسم اليها ويقع الاول منهما – اعني جامع عادلة خاتون الكبير، في مدخل شارع المستنصر مقابل المحكمة الشرعية الحالية وقد شيدته عام ١١٦٨ =١٧٥٤ م، واما الاخر وهو الجامع الصغير فكان موقعه في محلة"الدنكجية"(عكد الصخر) في شارع المأمون الحالي عند مدخل سوق الصفافير (الضيق) مقابل المتحف البغدادي حاليا، اما الان فقد دخل في الشارع العام بعد توسيعه، فشيد الوارثون بديلا عنه جامعا في محلة الصرافية يحمل اسم عادلة خاتون كذلك وذلك في عام ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٢ م، اما عادلة خاتون فتوفيت عام ١١٨٢ هـ = ١٧٦٨ ودفنت مع والدها احمد باشا، وجدها حسن باشا، بجوار مرقد ابي حنيفة (رض٩ في المقبرة المعروفة قديما بـ مقبرة الخيزران، بعد حياة حافلة بالكفاح والصراع، مشحونة بالاحداث والمفارقات فهي، وان لم تكن والية على بغداد، ولكنها تأمرت وتآمرت على الولاة، وذلك لأمتلاء نفسها بالعزة المشوبة بالغرور والغيرة، لأنها ابنة وال ابن وال ابن وزير، هذا من جهة الاب، واما من جهة الام فهي ابنة امير عربي، غير ان والدها المرحوم"احمد باشا"سعى في تزويجها من الآغا المملوك المعتق ربيبه المعروف بـ طسليمان باشا"فيما بعد وذلك عام ١١٤٥هـ ١٧٣٢ م، وقد خلف سليمان والدها احمد باشا بعد وفاته عام (١١٦٠ هـ =١٧٤٧/) فأصبح يدعى سليمان أبا ليلة وابا سمرة وسليمان الاسد لانه كان قد اشترك مع والدها –احمد باشا– في قتل اسد اعترضهم في منطقة عقرقوف – في الكرخ– كما كان يدعى كذلك بـ دواس الليل، لانه غالبا ما كان يخرج ليلا متنكراً ليتفقد شؤون الرعية –من ذلك سمي ابا ليلة، وكانت له حملات مفاجئة، وكبسات معروفة على حملات مفاجئة، وكبسات معروفة على العصاة والمتمردين، ذكرها غير واحد من المؤرخين.

غير ان السيدة عادلة خاتون – على ما عرفنا من سيرتها وتربيتها – لم تكن راضية او مقتنعة بهذا الزواج، الذي اراده لها والدها، احمد باشا، من هذا الزوج الذي كان مملوكا لجدها"حسن باشا"ووالدها احمد– كما ذكرنا اذ من عليه والدها بالعتق بعد ان كان قد تربى في بيت جدها ووالدها مع جملة المماليك الذين جلبوا من بلاد الكرج"تفليس"في عهد جدها حسن الذي عرف عنه انه"مؤسس اسرة المماليك في العراق". ولعل هذا الزواج الفاشل وكون عادلة خاتون نفسها عاقرا كأختها،"عائشة خاتون"وهما الشقيقتان الوحيدتان لابيهما –حيث لم ينجب ولداً ذكرا – هما اللذان جعلا من عادلة خاتون تلك المرأة الجبارة المتحكمة. التي ضمت بين جنبيها نفساً معقدة انطوت على جملة من المتناقضات، فهي كما ذكرها قريبها"الاستاذ المميز"مشيدة الجامعين المذكورين باسمها، وصاحبة الاملاك والموقوفات عليهما وعلى الذرية من الوارثين وهي كذلك لها مبررات

كثيرة وخيرات وفيرة، وكان لها الفضل في انشاء مدرسة جماعة من اتباعها سماهم"المميز"(الانصار) كانت تعتمد عليهم في فرض سيطرتها على السلطات في بغداد حتى اكتسبت لقب (الملكة الوالدة) وكان هؤلاء الانصار يعلقون على صدورهم شارات مطرزة بالحرير مكتوباً عليها طلاب مدرسة عادلة خاتون، لتمييزهم عن غيرهم من موظفي الدولة ورعايا البلاط.

وقد ذكر"المميز"ايضا: ان هذه المدرسة صارت في العهود الاخيرة لتدريس الفقه الحنفي وقد درس فيها كثيرون من رجال الفقه والقانون على يد اشهر علماء بغداد يومذاك، امثال السيد محمود الالوسي، مفتي بغداد، والسيد صبغة الله الحيدري، وكان آخرهم الملا نجم الدين الواعظ رحمه الله، مفتي بغداد اخيرا، الذي اسندت اليه جهة التدريس في هذه المدرسة فلقب يومئذ بـ"مدرس العدلية"نسبة الى تلك المدرسة ن فبقي فيها مدة طويلة يتقاضى رواتبه من المتولين على اوقاف عادلة خاتون- كما اوضح المؤلف"المميز"علاقة وزارة العدل بالمحكمة الشرعية الحالية ذلك ان عادلة كانت قد اوصت بقطعة الارض المحصورة بين الجامع ونهر دجلة لتكون محكمة للشرع الشريف، وشيدت داراً بجنب دار سكناها خصصته لسكنى القاضي، وبقي الحال كذلك حتى اواخر العهد العثماني، وبعد الاحتلال سكنت عائلة عبد القادر بك- المعروف بقدوري – جد عبد القادر المميز، تلك الدار فترة من الزمن، ثم أخلتها لتداعيها، وبقيت المحكمة الشرعية في مكانها حتى اواخر العشرينيات من دون ان ينازع ملكيتها احد، وبالنظر لتقادم الزمن، فقد استولت عليها وزارة العدلية (العدل) وهدمتها كما هدمت دار القاضي بجوارها واعادت بناء المحكمة في وضعها الحالي وذلك عام ١٩٣٤.

وكان آخر من سكن تلك الدار من القضاة هو المرحوم محمد سعيد الحديثي –قاضي بغداد الاسبق – وقد سمي الحمام المجاور للمحكمة الشرعية (حمام القاضي) موقع سوق التجار حاليا- انتهى مختصراً عما ذكره المميز في كتابه المنوه عنه (ص١٦٨).

هذه عزيزي القارئ صفحة او جانب من جوانب الخير والبر ذكرها المؤلف –المميز- على سبيل المثال لما خلفته عادلة خاتون من مبررات وخيرات و-لعلها- رحمها الله ، ارادت بها ان تتشبه بتلك السيدة الهاشمية العربية "زبيدة بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور" زوج الرشيد وام الامين واسمها "أمة العزيزط وزبيدة لقب لها لقبها به جدها المنصور لبياضها وبضاضتها وجمالها – فقد كانت هذه السيدة الجليلة الصالحة على جانب من التقوى وحب الخير، وكانت رحمها الله ، مثالا يحتذى به للمرأة المسلمة الخيرة الفاضلة ، وقد جمع لها الشرف من طرفيه نسبا وحسبا ما لم يجتمع لغيرها من نساء عصرها، ولابعده – على ما علمنا – فكانت ذات معروف وخير ونفقة واسعة على اصحاب الحاجات والمعوزين ما كثرت عنها الحكايات في كتب التاريخ والاخبار –وقصة حجمها وما فعلته وانفقته في طريقها من الاحسان مشهور لايحتاج الى بيان، كان منه انها سقت اهل مكة الماء العذب بعد ان أسالته من مسافة عشرة اميال عربية (الميل اربعة الاف ذراع =كيلو مترين) ما بين الجبال والوديان بعد ان كانت الراوية عندهم تباع بدينار، كما كان لها مئة جارية يحفظن القرآن، وكان يسمع في قصرها لقراءتهن دوي كدوي النحل الى غير ذلك من المآثر والاثار.

بحكم كونها ابنة الوالي، احمد باشا، وحفيدة الوالي حسن باشا، وزوجة الوالي سليمان باشا، ابو ليلة، ولكن حكمها هذا وتحكمها كان يشوبه الكثير من العنت والافتئات وبخاصة مع زوجها سليمان باشا ابي ليلة، فضلا عن سائر الولاة ، وكنا قد ألمعنا في ما سبق من عدم رضاها بهذا الزوج الذي خلف اباها احمد بباشوية او ولاية بغداد حينما رغب والدها ان يكون هذا هو الخلف الصالح له بعد ان حرره من الرق ومن عليه بالعتق وقلده المناصب الكبيرة في الولاية، نظرا لما كان يتوسم فيه من خصال الخير والصلاح وكان يعتمد عليه في جميع اموره المهمة حتى اوصله الى ارفع الدرجات قدرا واجلها شأنا وكان يصحبه في حملاته وحروبه معه، فيرى فيه الفارس المغوار والبطل الذي لا يشق له غبار.

غير ان السيدة عادلة خاتون التي ارادت ان تتشبه بهذه السيدة الخيرة بعمل الخيرات والمبرات لها جانب اخر من السيرة يناقض هذا تماماً، وذلك على حد قول قريبها المميز، نقلا عن المؤرخين "انها كانت تتحكم في شؤون باشوية بغداد" وتتدخل في كل صغيرة وكبيرة من امور الموظفين والولاة.

بحكم كونها ابنة الوالي، احمد باشا، وحفيدة الوالي حسن باشا، ابو ليلة، ولكن حكمها هذا وتحكمها كان يشوبه الكثير من العنت والافتئات وبخاصة مع زوجها سليمان باشا ابي ليلة، فضلا عن سائر الولاة ، وكنا قد ألمعنا في ما سبق من عدم رضاها بهذا الزوج الذي خلف اباها احمد بباشوية او ولاية بغداد حينما رغب والدها ان يكون هذا هو الخلف الصالح له بعد ان حرره من الرق ومن عليه بالعتق وقلده المناصب الكبيرة في الولاية، نظرا لما كان يتوسم فيه من خصال الخير والصلاح وكان يعتمد عليه في جميع اموره المهمة حتى اوصله الى ارفع الدرجات قدرا واجلها شأنا وكان يصحبه في حملاته وحروبه معه، فيرى فيه الفارس المغوار والبطل الذي لا يشق له غبار.

وكان قد صحبه في حملة سار هو على رأسها وذلك عام ١١٦٠ =١٧٤٧، وعند رجوعه من حملته هذه اصابته حمى الملاريا الخبيثة التي فتكت به وبجيشه فتكاً ذريعاً وفي طريقه الى بغداد ومروره بـ "دلي عباس" اشتدت عليه الحمى فقضى نحبه وجيء بجثمانه الى بغداد ودفن بجوار والده "حسن باشا" في مقبرة الامام الاعظم.

ولكن عادلة خاتون ابنته كانت تعتقد ان سبب وفاة والدها كله هو "سليم باشا بابان" لذا فقد كانت تحرض زوجها سليمان على الانتقام منه اخذا لثأر والدها وذلك بمحاولة القاء القبض عليه ثم القضاء، ولكن زوجها لم يستطع تحقيق هذا المطلب وذلك لتحصن سليم بابان في الاوعار والجبال، فأخذت عادلة منذ ذلك الحين تنظر الى زوجها سليمان بعين الاحتقار، كما كانت شديدة الغطرسة معه والتكبر عليه مع عدم الشفقة في معاملته كباشا خلف والدها، أو على الاقل انه زوجها، ولكونها امرأة عاقراً حرمت عليه التزوج من غيرها لئلا يكون له نسل، كما منعته حتى من اقتناء الجواري للسبب ذاته، فيل الامر به الى انقطاع نسله فلم يخلف عقباً بعده، وبهذا تكون هذه السيدة – كما قال الرحالة "نيبور" في رحلته المشهورة ، نموذجا حيا للمرأة التركية – يريد انها بالغة الحد في الحسد والغيرة.

كما كانت حريصة على ان تكون هي سيدة الباشوية من وراء زوجها المملوك سليمان باشا ابي ليلة فما ان تسلم هذا زمام الحكم بعد وفاة والدها حتى نشطت الخاتون عادلة الى ممارسة نفوذها واستخدام سطوتها في جمع الاتباع والمريدين الذين سبق ان سماهم المميز (الانصار) وتشكيل كتلة قوية في عاصمة الولاية بغداد، تأتمر بأمر زوجها الباشا المسؤول ، حتى بلغ الامر بها ان صارت تتدخل في شؤون الحكومة وادارتها وتتحكم في النقل والتعيينات.

واصبحت متمكنة من نقض الاوامر التي كان يصدرها زوجها الباشا، او وزيره "الكهية" في كثير من الاحيان.

وكانت كما ذكرنا سابقاً قد شكلت لها حاشية واتباعا يحملون شارة خاصة بهم تميزهم عن غيرهم من موظفي الدولة ورجالها، فأخذ اصحاب الحظوة عندها من المقربين والشيوخ يتزلفون اليها بظلم الناس وابتزاز اموالهم واملاكهم ويقدمونها اليها، فتجمع لديها شيء غير يسير من المال والثروة علاوة على الجاه والسطوة، فأخذت تستخدم ذلك في بسط نفوذها ومد سيطرتها واشاعة السمعة الحسنة لها فباشرت بما تجمع لديها من المال والعقار بتشييد المباني وانشاء المساجد والخانات للقوافل والمسافرين في الطرق المهمة.

ومن ذلك جامع عادلة خاتون الكبير، وكذا الصغير، اللذان اشاد المؤلف بذكرهما واعاد مرات، وكذا خان عادلة خاتون، الذي لم يتعرض لذكره المؤلف ويقع في الطريق ما بين "التون كيري" واربيل حيث نشأت حوله قرية "قوش تبة" التي شاهدها الرحالة "نيبور" ووقف عليها في اثناء رحلته وهي باقية الى يومنا هذا.

على ان زوجها الباشا سليمان كان ينظر اليها بعين كسيرة ونفس حسيرة، وذلك لتعاظم شأنها حدا اصبحت معه خطراً على خصومها، او الذين يقفون في طريقها، لانها كانت بارعة في الدس والتآمر، وجريئة في خلق المناسبات للقتل والاغتيال.فعرفت في ايامها حوادث ذات بال من هذا القبيل نذكر منها:

×انها كانت على غير وئام مع شقيقتها الوحيدة عائشة خاتون، التي تزوجت شخصية من البلد يدعى احمد آغا ولم يكن هذا مملوكا من المماليك، كزوجها.. وانما كان ابنا لابوين محترمين لهما منزلة مرموقة عند الناس فدفعها حسدها لاختها وحقدها الدفين عليها وغيرتها الى الانتقام منها، بزوجها المسكين احمد آغا، فأشاعت هي واتباعها ان هذا يريد اغتيال زوجها سليمان ليحل محله في الولاية والباشوية، وكانت هي بالفعل قد أغرت احد الموظفين الكبار في الولاية وهي "قهوجي لر كهيه سي".اعني كبير البوابين او الحجاب ، بأن يفاوض حماها احمد آغا، (زوج اختها عائشة) في قتل سليمان باشا زوجها، ليحل محله كما اسلفنا الا ان احمد آغا، هذا رفض الاستجابة لطلب هذا المفاوض المخدوع واهانه بالكلام ثم انقطع عن مواجهته على ما قاله الرحالة "نيبور" في رحلته.

×على ان عادلة خاتون لم تقف عند فشل هذه المحاولة راكدة بل اوصلت هذه الدسيسة المفتعلة وبصورة مثيرة الى زوجها سليمان حتى اقتنع هذا واهما بسوء نية عديله احمد آغا، فدبر امر اغتياله فتم له ذلك وذهب هذا المسكين الغافل ضحية مكر عادلة خاتون وغدرها ونتيجة طبيعية لذلك زاد الشقاق والتنافر بين الاختين، فأراد زوجها سليمان باشا ان يزيل هذا الشقاق بينهما، فأقنع عائشة خاتون المفجوعة بزوجها ان تتزوج من الكهية. (عمر آغا) وكان هذا من جماعة الاغوات البارزين الذين بيدهم النفوذ والسلطة في بغداد وهم من الموظفين الكبار فتزوجته عائشة تحقيقا لرغبة "حميها سليمان باشا" فاصبح عمر آغا زوجها الثاني بعد ذاك الذي شفت غليلها منه اختها عادلة.

×ان عادلة خاتون لم تنس قتل والدها ولم يتبدل سوء ظنها بالذي اتهمته بقتله او بسبب موته وهو "سليم باشا بابان" المار ذكره آنفا، فالتجأت لتدبير الحيل والخدايع للقبض عليه وجلبه الى بغداد بكل وسيلة ماكرة لقصد الانتقام منه.. فأعلنت منح سليم بابان الامان، واقسم له بالمقدسات، واغلظ الايمان على رفع الوحشة واحلال المحبة، فبعثت اليه الخاتون من عندها كعلامة للامان بمنديل من حرير من مناديلها الثمينة المعطرة التي كانت تمنحها لأتباعها المقربين ، ففعلت تلك الاساليب الخداعة في سليم (وهو الرجل الساذج ذو القلب السليم) فعل السحر، فأيقن انه حظي باعظم ما كان يتمناه من الحظوة والالتفات في عاصمة الباشوية بغداد، فجاء اليها كالساعي الى حتفه بظلفه كما يقول المثل، لكنه ما ان وطأت قدماه ارض بغداد حتى اودع السجن وخنق في اليوم التالي. وبذلك شفت عادلة غليلها من عدو موهوم كان قد اقلق بالها مدة من الزمان.

وفي الرابع عشر من ايار عام ١١٧٦ هـ =١٧٦٢ كان سليمان باشا ابو ليلة زوج عادلة خاتون قد بلغ من العمر الثمانية والستين عاما قضى اثنتي عشرة عاما منها واليا على بغداد او حاكماً عليها ولكن من الدرجة الثانية بالنسبة لزوجته عادلة، فوافته المنية مرتاحاً من أسر زوجته هذه واوزارها.

فبقيت ولاية بغداد شاغرة الا من عادلة فحينذاك استطاع احد الاغوات المماليك وهو "متسلم البصرة علي آغا" ان يحصل من الباب العالي في استطنبول علي باشو، بغداد ويحل محل زوجها المتوفي سليم باشا، وذلك بعد ان بذل في سبيل ذلك المال الكثير والهدايا الثمينة، فجاء الى بغداد حاملاً معه، فرمان التعيين غير انه لم يستطع ان يحكم فيها سوى اثنين وعشرين شهراً فقط كان خلالها مثالا للموظف الحازم الجاد فقضى على المشاكل الحاصلة واحدة بعد اخرى كما اخمد ثورة الانكشارية في قلعة بغداد بمساعدة اشرافها والقبائل العربية الموالية له.

كما اخضع المتمردين في مناطق مختلفة من كردستان في الشمال، ولكنه لم يتمكن من اخضاع أو تأديب الخزاعل الثائرين في الفرات الاوسط او الجنوب حيث انهزم امامهم هزيمة منكرة صارت اهازيجها العشائرية تتردد في مقاهي بغداد وأزقتها.

ولما كانت عادلة خاتون لم تهدأ نفسها من الحقد على الولاة أو لم ينته تحكيمها او رغبتها في السيطرة على مقدرات العراق بوفاة زوجها، اتجهت الان الى محاربة الوالي الجديد "علي باشا" الذي كان فيما مضى مملوكا او خادما في معيبة "السفرجي باشي"في بيت والدها احمد باشا فلم يرى لها ان يحكم بغداد هذا المملوك كباشا فلجأت حينئذ الى خلق الوسائل للايقاع به والتنكيل كسابقيه.. فاغتنمت فرصة انتصاره على الاكراد في الشمال وهزيمته من الخزاعل في الجنوب، فراحت توغر الصدور وتشيع في الاندية والاوساط الاخرى بواسطة رجالها واتباعها، ان علي باشا، الوالي الجديد.. عامل الاكراد بقسوة بينما تساهل مع الخزاعل واندحر امامهم، ومال الى العشائر الضاربة في منطقة الفرات الاوسط وحاباهم.

الا ان الاغوات البارزين في بغداد الذين كانت بيدهم القوة، ظلوا غير مصدقين لهذه الاراجيف والاشاعات، وفي هذه الاثناء حدث ان توفي احد هؤلاء الاغوات فجأة فكانت هذه الحادثة لعادلة خاتون فرصة ثمينة نزلت عليها من السماء، فانبرت توحي للاغوات الباقين، بأن صاحبهم مات مسموماً بتدبير "علي باشا" والي بغداد نفسه، وانه بعث الى الباب العالي في اسطنبول يستحل موافقته على قتلهم وانقاذ الولاية من قبضة المماليك ، فصدقوا قولها الان، فراحوا يلتمسون الحيل لسلامتهم والنجاة بأنفسهم، ولم تمض ايام معدودة حتى فوجئ الوالي علي باشا، بان الاغوات زملاءه القدماء ، قد ثاروا عليه يتزعمهم كهيته وزيره الاول "عمر آغا" (الزوج الثاني لأختها عائشة) فهاجمته بغداد بأسرها وشهرت السلاح بوجهه، فوجد نفسه وحيداً وقد تخلى عنه الجميع.. لذلك اضطر الى ان يلوذ بالفرار متنكرا بزي النساء، وسرعان ما القي القبض احد جواسيس السراي، وهو بزيه هذا فسيق اليه واعدم فيه، فذهب المسكين كاصحابه السابقين ضحية لنقمة عادلة خاتون، واطماعها الشخصية وأنانيتها التي لاتنتهي.

جريدة الاتحاد كانون الثاني 1985

كانت حريصة على ان تكون هي سيدة الباشوية من وراء زوجها المملوك سليمان باشا ابي ليلة فما ان تسلم هذا زمام الحكم بعد وفاة والدها حتى نشطت الخاتون عادلة الى ممارسة نفوذها واستخدام سطوتها في جمع الاتباع والمريدين الذين سبق ان سماهم المميز (الانصار) وتشكيل كتلة قوية في عاصمة الولاية بغداد، تأتمر بأمر زوجها الباشا المسؤول ، حتى بلغ الامر بها ان صارت تتدخل في شؤون الحكومة وادارتها وتتحكم في النقل والتعيينات.
واصبحت متمكنة من نقض الاوامر التي كان يصدرها زوجها الباشا، او وزيره "الكهية" في كثير من الاحيان.

ناصر حكيم . .يغنى بثمانية دنانير

علي الكناني

ناصر حكيم ولد عام ١٩١٠ في ناحية عكيكه (بمنطقة ريفية تدعى البندربات على ضفاف نهر الفرات) بقضاء سوق الشيوخ في محافظة ذي قار المدينة التي انجبت كبار الغناء العراقي. و هو الاول بين تسلسل اخوانه الاربعة(مؤنس و عبد و علوان و كريم). و كان راعيا لاغنام اهله ومنذ طفولته كان يغني بين اهله واصدقائه و يدندن بصوته الطفولي الاغاني التي كانت ترددها بنات العيد (و هن مجموعة نساء كن يحملن الدفوف و يرددن بعض الاغاني الشعبية المعروفة انذاك) ثم لاحت له فرصة عام ١٩٢٥ في احتفال كبير بالمحافظة ضم اكثر من ثلاثين مطرباً وعندما غنى معهم لفت الانظار اليه وهو ما يزال فتى ويمتلك صوتاً جميلاً يضاهي افضل الاصوات الموجودة في الساحة فجاءه (نسين الساعاتي) احد الحاضرين في الاحتفال وطلب اليه تسجيل اسطوانات عند صاحب شركة اسطوانات (بلفون) فسافر ناصر حكيم الى فرع الشركة في البصرة وسجل سبع اسطوانات بمبلغ ٥٠ ربية قدم فيها عدة اطوار ريفية مختلفة وابرز الاغاني التي سجلها هي(بولفي سبع اوصاف –سوده شلهاني- رد يا بو زويني- يمهيرة البدران-بالشطرة شبت نار- بوية سوادي- هلبت منيرة وغيرها) وقد منحته الشركة ٥٠ روبية كاجور عن كل اسطوانة وفي العام التالي استدعته الشركة الى مقرها الرئيس في بغداد مع زميلة ملا شنين وخضير حسن وسجل اسطوانات جديدة تضمنت اغنيات بالراض –وبهية- بطل يدالي غنتها من بعده صديقة الملاية – وفي عام ١٩٢٧ سجل لشركة (بيضافون) اسطوانات مع الفنان حضيري ابو عزيز وخطار جابر. و لهذا الفنان خصوصية في الغناء الريفي لانه يمتلك صوتا عريض المساحة و طاغيا حتى على الموسيقى و ميالا الى الحزن اكثر منه الى التطريب الا ان صوته لا يخلو من النبرات المحببة التي تخرج من حنجرته كأنها زغاريد على هيئة اغنية و كذلك الارتعاشات الموجودة في حبال صوته و لذلك جعل منه فنانا يشار له بالبنان و فنانا من الصعب تقليد نبرات صوته

غنى في الاذاعة بـ 8 دنانير

وفي عام ١٩٤٨ ذهب الى فلسطين مع مجموعة من المطربين لاحياء عدة حفلات للقوات المسلحة اللتي كانت تقاتل في فلسطين كما سجل اغنياته لشركة محطة الشرق الاوسط في بيروت عام ١٩٥٥ مع ناظم الغزالي ووحيدة خليل وداخل حسن وجواد وادي وحسن خيوكه و قد شغف بحب الموسيقى و الغناء و لم يتجاوز عمره الـ١٠ سنين و يعد الفنان ناصر حكيم من الرعيل الاول الذين دخلوا الاذاعة العراقية (التي انشئت عام ١٩٣٦) و من المنتسبين الاوائل اليها و قد كان يتقاضى اجرا مقداره ٨ دنانير عن كل حفلة مع زميليه حضيري ابو عزيز و داخل حسن لان الحفلات كانت تبث بشكل مباشر و حي لعدم وجود اجهزة تسجيل كما في وقتنا هذا و لان الاغنية في ذلك الوقت كانت تحمل هموم الانسان و تعبر عن افراحه و احزانه .و يعتبر صوت الفنان من طبقة التينور(صوت عالي جدا ولكنه جميل)و صوته لا يخلو من القهقهات و العرب و شجن .

اغنية لها قصة

ومن الحوادث المشهورة في حياة ناصر حكيم قصة اغنية (رد يابو زويني) التي يتحدث عنها دائماً في احاديثه الصحفية و التلفزيونية والاذاعية فقد كان حكيم معتاداً على لقاء حبيبته في صباح كل يوم بعد ان يعبر ضفة النهر الى الجهة الاخرى حيث سكن الحبيبة وكانت الاشارة بينهما صوت الرحى عندما تطحن الحنطة وفي يوم شتائي بارد عبر (ناصر) النهر (بالبلم) وهو يرتدي مقطع (زويني) وقبل الوصول الى الحبيبة جاء اولاد عمها فصاحت بصوت عال قريب للغناء حتى تنبه لذلك:

رد يابوزويني عدوانك مغربين
لنته جنيني ولنته لي و اسلاك

فرمى ناصر بنفسه في الماء وعاد سباحة في عز البرد وهو يجيب على قول الحبيبة بصوته العذب.

حجلي الي وياج يا من تطحنين
يتفسر البولاذ بس لا تونينن
لشرك ضلوعي كون بيهن واخليج
خلهة اتهجع وتنام روحي التهم بيج

ذاكرة عراقية

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم التصحيح اللغوي : يونس الخطيب